سورة الشعراء

مكية، إلا قوله [والشعراء. . . إلى آخر السورة]

وهي مائتان وسبع وعشرون آية، وفي رواية: وست وعشرون آية [نزلت بعد الواقعة]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾

﴿طسٓمٓ ۝١﴾ بتفخيم الألف وإمالتها، وإظهار النون وإدغامها ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ الظاهر إعجازه، وصحة أنه من عند الله، والمراد به السورة أو القرآن. والمعنى: آيات هذا المؤلف من الحروف المبسوطة تلك آيات الكتاب المبين.

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾

البخع: أن يبلغ بالذبح البخاع بالباء، وهو عرق مستبطن الفقار، وذلك أقصى حدّ الذبح، ولعل للإشفاق، يعني: أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ما فاتك من إسلام قومك ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ لئلا يؤمنوا، أو لامتناع إيمانهم، أو خيفة أن لا يؤمنوا. وعن قتادة ـ رضي الله عنه ـ: باخع نفسك على الإضافة.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾

أراد: آية ملجئة إلى الإيمان قاصرة عليه. ﴿فَظَلَّتْ﴾ معطوف على الجزاء الذي هو ننزل؛ لأنه لو قيل: أنزلنا، لكان صحيحاً. ونظيره: فأصدّق وأكن، كأنه قيل: أصدق. وقد قرئ: لو شئنا لأنزلنا. وقرئ: فتظل أعناقهم. فإن قلت: كيف صح ٢/ ٥٥أ مجيء خاضعين خبراً عن الأعناق؟ قلت: أصل الكلام: فظلوا لها خاضعين. فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع، وترك الكلام على أصله، كقوله: ذهبت أهل اليمامة، كأنّ الأهل غير مذكور. أو لما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء قيل: خاضعين، كقوله تعالى: ﴿لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وقيل أعناق الناس: رؤساؤهم ومقدّموهم، شبهوا بالأعناق كما قيل لهم هم الرءوس والنواصي والصدور، قال [من البسيط]:

. . . . فِي مَحْفِلٍ مِنْ نَوَاصِي النَّاسِ مَشْهُودِ[1]

وقيل: جماعات الناس. يقال: جاءنا عنق من الناس لفوج منهم. وقرئ: فظلت أعناقهم لها خاضعة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت هذه الآية فينا وفي بني أمية. قال: ستكون لنا عليهم الدولة، فتذل لنا أعناقهم بعد صعوبة، ويلحقهم هوان بعد عزة.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾﴾

أي: وما يجدد لهم الله بوحيه موعظة وتذكيراً، إلا جددوا إعراضاً عنه وكفرًا به. فإن قلت: كيف خولف بين الألف والغرض واحد، وهي الإعراض والتكذيب والاستهزاء؟ قلت: إنما خولف بينها لاختلاف الأغراض، كأنه قيل: حين أعرضوا عن الذكر فقد كذبوا به، وحين كذبوا به فقد خف عندهم قدره وصار عرضة للاستهزاء والسخرية؛ لأنَّ من كان قابلاً للحق مقبلاً عليه، كان مصدقاً به لا محالة ولم يظن به التكذيب ومن كان مصدقاً به، كان موقراً له ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ وعيد لهم وإنذار بأنهم سيعلمون إذا مسهم عذاب الله يوم بدر أو يوم القيامة ﴿مَا﴾ الشيء الذي كانوا يستهزؤون به وهو القرآن، وسيأتيهم أنباؤه وأحواله التي كانت خافية عليهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾

وصف الزوج وهو الصنف من النبات بالكرم، والكريم: صفة لكل ما يرضى ويحمد في بابه، يقال: وجه كريم، إذا رضي في حسنه وجماله، وكتاب كريم: مرضي في معانيه وفوائده؛ وقال [من المنسرح]:

. . . . حَتَّىٰ يَشُقَّ الصُّفُوفَ مِنْ كَرَمِهْ[2]

---

(١) تقدم.

(٢)
مَن رأى يومنا ويوم بني التـ ... ـيم إذا التف صيقه بدمه
لما رأوا أن يومهم أشب ... شدوا حيازيمهم على ألمه
كأنما الأسد في عرينهم ... ونحن كالليل جاش في قتمه
لا يسلمون الغداة جارهم ... حتى يزل الشراك عن قدمه =

أي: من كونه مرضياً في شجاعته وبأسه، والنبات الكريم: المرضي فيما يتعلق به من المنافع ﴿إِنَّ فِي﴾ إنبات تلك الأصناف ﴿لَآيَةً﴾ على أن منبتها قادر على إحياء الموتى، وقد علم الله أن أكثرهم مطبوع على قلوبهم، غير مرجوّ إيمانهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من الكفرة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً. فإن قلت: ما معنى الجمع بين كم وكل، ولو قيل كم أنبتنا فيها من زوج كريم[1]؟ قلت: قد دلّ ﴿كُلِّ﴾ على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل، و﴿كَمْ﴾ على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة[2]، فهذا معنى الجمع بينهما، وبه نبه على كمال قدرته. فإن قلت: فما معنى وصف الزوج بالكريم؟ قلت: يحتمل معنيين، أحدهما: أن النبات على نوعين: نافع وضارّ، فذكر كثرة ما أنبت في الأرض من جميع أصناف النبات النافع، وخلى ذكر الضارّ. والثاني: أن يعم جميع النبات نافعه وضارّه، ويصفهما جميعاً بالكرم وينبه على أنه ما أنبت شيئاً إلا وفيه فائدة؛ لأنّ الحكيم لا يفعل فعلاً إلا لغرض صحيح ولحكمة بالغة، وإن غفل عنها الغافلون، ولم يتوصل إلى معرفتها العاقلون. فإن قلت: فحين ذكر الأزواج ودلّ عليها بكلمتي الكثرة والإحاطة، وكانت بحيث لا يحصيها إلا عالم الغيب، كيف قال: ﴿إِنَّ فِي

= ولا يخيم اللقاء فارسهم حتى يشق الصفوف من كرمه

لرجل من حمير. ومن: استفهامية. والصيق والصيقة ـ بالكسر ـ: الغبار والتراب. والأشب ـ كحذر ـ: كثير الجلبة والاختلاط، ويطلق على المكان الذي التف شجره، والحيزوم: الصدر. والعرين: أجمة الأسد يسكن فيها. وجاش: ارتفع وأقبل. والقتم: الغبار والسواد والظلمة. وروي في غشمه: بالغين. والمعنى واحد، لا يسلمون لا يخذلون ولا يتركون. والشراك: سير النعل، ولا يخيم: أي لا يجبن عن اللقاء، واليوم: الزمن أو الواقعة، وإضافة الصيق والدم إليه لأنه فيه. ووصف اليوم بأنه كثير الصياح والاختلاط، لأن ذلك واقع فيه، وشد الحيازيم على الألم: كناية عن التجلد والصبر. وشبههم بالأسود في شجاعتهم، وشبه قومه بالليل في الإحاطة والقهر للغير، ثم قال: لا يتركون حليفهم غداة الروع حتى يرتبك وحده في الحرب، فزلل الشراك: كناية عن ذلك ولا يجبن الفارس منهم عن اللقاء، فهو نصب على نزع الخافض، وقيل: مفعول معه، حتى يشق صفوف الحرب ويدخلها من كرمه، أي شجاعته وجراءته، لأن الكرم في كل باب بحسبه، وحتى الأولى غاية للمنفي، والثانية غاية للنفي. ويجوز أن الثانية ابتدائية، والفعل بعدها مرفوع على الاستئناف، وهذا أبلغ في المدح، ثم إن مدح عدوهم مدح لهم.

(١) قوله «كم أنبتنا فيها من زوج كريم» لعل بعده سقطا تقديره «كان مستقيما». (ع)

(٢) قال محمود: «إن قلت: ما فائدة الجمع بين كل وكم؟ وأجاب بأن كلا دخلت للإحاطة بأزواج النبات وكم دلت على أن هذ المحاط به متكاثر مفرط الكثرة» قال أحمد: فعلى مقتضى ذلك يكون المقصود بالتكثير: الأنواع والظاهر أن المقصود آحاد الأزواج والأنعام، ويدل عليه أنك لو أسقطت (كل) فقلت: انظروا إلى الأرض كم أنبت الله فيها من الصنف الفلاني، لكنت مكنيا عن آحاد ذلك الصنف المشار إليه، فإذا أدخلت (كل) فقد أديت بتكريره آحاد كل صنف لا آحاد صنف معين، والله أعلم.

ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ وهلا قال: آيات؟ قلت: فيه وجهان: أن يكون ذلك مشاراً به إلى مصدر أنبتنا، فكأنه قال: إن في الإنبات لآية أيّ آية. وأن يراد: أن في كل واحدة من تلك الأزواج لآية. وقد سبقت لهذا الوجه نظائر.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾

سجل عليهم بالظلم بأن قدّم القوم الظالمين، ثم عطفهم عليهم عطف البيان، كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون وكأنهما عبارتان تعتقبان على مؤدى واحد: إن شاء ذاكرهم عبر عنهم بالقوم الظالمين، وإن شاء عبر بقوم فرعون. وقد استحقوا هذا الاسم من جهتين: من جهة ظلمهم أنفسهم بالكفر وشرارتهم، ومن جهة ظلمهم لبني إسرائيل باستعبادهم لهم. قرئ: ألا يتقون بكسر النون، بمعنى: ألا يتقونني: فحذفت النون لاجتماع النونين، والياء للاكتفاء بالكسرة. فإن قلت: بم تعلق بقوله: ألا يتقون؟ قلت: هو كلام مستأنف أتبعه عز وجل إرساله إليهم للإنذار، والتسجيل عليهم بالظلم، تعجيباً لموسى من حالهم التي شنعت في الظلم والعسف، ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم وحذرهم من أيام الله، ويحتمل أن يكون (لا يتقون) حالاً من الضمير في الظالمين، أي: يظلمون غير متقين الله وعقابه، فأدخلت همزة الإنكار على الحال، وأمّا من قرأ: ألا تتقون. على الخطاب. فعلى طريقة الالتفات ٢/ ٥٥ب إليهم، وجبههم، وضرب وجوههم بالإنكار، والغضب عليهم، كما ترى من يشكو من ركب جناية إلى بعض أخصائه والجاني حاضر، فإذا اندفع في الشكاية وحرّ مزاجه[1] وحمي غضبه قطع مبالثة صاحبه وأقبل على الجاني يوبخه ويعنف به ويقول له: ألم تتق الله، ألم تستح من الناس. فإن قلت: فما فائدة هذا الالتفات، والخطاب مع موسى عليه الصلاة والسلام في وقت المناجاة، والملتفت إليهم غيب لا يشعرون؟ قلت: إجراء ذلك في تكليم المرسل إليهم في معنى إجرائه بحضرتهم وإلقائه إلى مسامعهم، لأنه مبلغه ومنهيه وناشره بين الناس، وله فيه لطف وحث على زيادة التقوى، وكم من آية أنزلت في شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين، تدبرا لها واعتبارا بموردها. وفي ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ بالياء وكسر النون وجه آخر، وهو أن يكون المعنى: ألا يا ناس اتقون، كقوله ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ [النمل: ٢٥].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾

(١) قوله «وحر مزاجه» في الصحاح: حر يحر حرا وحرارة وحرور. (ع)

ويضيق وينطلق، بالرفع؛ لأنهما معطوفان على خبر إنّ، وبالنصب لعطفهما على صلة أن، والفرق بينهما في المعنى: أنّ الرفع يفيد أنّ فيه ثلاث علل: خوف التكذيب، وضيق الصدر، وامتناع انطلاق اللسان، والنصب على أن خوفه متعلق بهذه الثلاثة. فإن قلت: في النصب تعليق الخوف بالأمور الثلاثة، وفي جملتها نفي انطلاق اللسان. وحقيقة الخوف إنما هي غم يلحق الإنسان لأمر سيقع، وذلك كان واقعاً، فكيف جاز تعليق الخوف به؟ قلت: قد علق الخوف بتكذيبهم وبما يحصل له بسببه من ضيق الصدر، والحبسة في اللسان زائدة على ما كان به، على أنّ تلك الحبسة التي كانت به قد زالت بدعوته. وقيل: بقيت منها بقية يسيرة. فإن قلت: اعتذارك هذا يردّه الرفع، لأنّ المعنى: إني خائف ضيق الصدر غير منطلق اللسان. قلت: يجوز أن يكون هذا قبل الدعوة واستجابتها، ويجوز أن يريد القدر اليسير الذي بقي به، ويجوز أن لا يكون مع حل العقدة من لسانه من الفصحاء المصاقع[1] الذين أوتوا سلاطة الألسنة وبسطة المقال، وهارون كان بتلك الصفة، فأراد أن يقرن به. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤] ومعنى ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾: أرسل إليه جبرائيل. واجعله نبياً، وآزرني به[2]، واشدد به عضدي، وهذا كلام مختصر. وقد بسطه في غير هذا الموضع، وقد أحسن في الاختصار حيث قال: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ فجاء بما يتضمن معنى الاستنباء، ومثله في تقصير الطويلة والحسن قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾ [الفرقان: ٣٦] حيث اقتصر على ذكر طرفي القصة أوّلها وآخرها، وهما الإنذار والتدمير، ودلّ بذكرهما على ما هو الغرض من القصة الطويلة كلها، وهو أنهم قوم كذبوا بآيات الله، فأراد الله إلزام الحجة عليهم، فبعث إليهم رسولين فكذبوهما، فأهلكهم. فإن قلت: كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يأمره الله بأمر فلا يتقبله بسمع وطاعة من غير توقف وتشبث بعلل. وقد علم أن الله من ورائه؟ قلت: قد امتثل وتقبل، ولكنه التمس من ربه أن يعضده بأخيه حتى يتعاونا على تنفيذ أمره وتبليغ رسالته، فمهد قبل التماسه عذره فيما التمسه، ثم التمس بعد ذلك، وتمهيد العذر في التماس المعين على تنفيذ الأمر: ليس بتوقف في امتثال الأمر، ولا بتعلل فيه؛ وكفى بطلب العون دليلاً على التقبل لا على التعلل.

﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾

أراد بالذنب: قتله القبطي. وقيل: كان خباز فرعون واسمه فاتون. يعني: ولهم عليّ

---

(١) قوله «من الفصحاء المصاقع» في الصحاح «صقع الديك»: صاح. وخطيب مصقع، أي: بليغ. (ع)

(٢) قوه «وآزرني به» في الصحاح «آزرت فلاناً»: عاونته. والعامة تقول: وازرته. (ع)

تبعة ذنب، وهي قود ذلك القتل[1]، فأخاف أن يقتلوني به، فحذف المضاف، أو سمى تبعة الذنب ذنباً، كما سمى جزاء السيئة سيئة. فإن قلت: قد أبيت أن تكون تلك الثلاث عللا، وجعلتها تمهيداً للعذر فيما التمسه، فما قولك في هذه الرابعة؟ قلت: هذه استدفاع للبلية المتوقعة. وفرق من أن يقتل قبل أداء الرسالة، فكيف يكون تعللاً. والدليل عليه: ما جاء بعده من كلمة الردع، والموعد بالكلاءة والدفع.

﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾

جمع الله له الاستجابتين معاً في قوله ﴿كَلَّا فَاذْهَبَا﴾ لأنه استدفعه بلاءهم فوعده الدفع بردعه عن الخوف، والتمس منه الموازرة بأخيه فأجابه بقوله ﴿فَاذْهَبَا﴾ أي اذهب أنت والذي طلبته وهو هارون. فإن قلت: علام عطف قوله ﴿فَاذْهَبَا﴾؟ قلت: على الفعل الذي يدل عليه ﴿كَلَّا﴾ كأنه قيل: ارتدع يا موسى عما تظنّ، فاذهب أنت وهارون. وقوله: ﴿مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ من مجاز الكلام، يريد: أنا لكما ولعدوّكما كالناصر الظهير لكما عليه إذا حضر واستمع ما يجري بينكما وبينه. فأظهركما وأغلبكما وأكسر شوكته عنكما وأنكسه. ويجوز أن يكونا خبرين لأنّ، أو يكون ﴿مُسْتَمِعُونَ﴾ مستقراً، و﴿مَعَكُمْ﴾ لغواً ٢/٥٦أ. فإن قلت: لم جعلت ﴿مُسْتَمِعُونَ﴾ قرينة ﴿مَعَكُمْ﴾ في كونه من باب المجاز، والله تعالى يوصف على الحقيقة بأنه سميع وسامع؟ قلت: ولكن لا يوصف بالمستمع على الحقيقة؛ لأنّ الاستماع جار مجرى الإصغاء، والاستماع من السمع بمنزلة النظر من الرؤية. ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾ [الجن: ١] ويقال: استمع إلى حديثه، وسمع حديثه، أي: أصغى إليه وأدركه بحاسة السمع. ومنه قوله ﷺ: «من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صبّ في أذنيه البرم»[2] (١٠٧٤). فإن قلت:

١٠٧٤ ـ قال الزيلعي (٢/ ٤٧٣): غريب جدًا.
قال الحافظ: لم أجده بهذا اللفظ والمحفوظ: «صب في أذنيه الآنك» اهـ. =

---

(١) قوله «وهي قود ذلك القتل» لعله القتيل. (ع)
(٢) قوله «صب في أذنيه البرم» في الصحاح «البرم»: ثمر العضاة. (ع)

هلا ثنى الرسول كما ثنى في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]؟ قلت: الرسول يكون بمعنى المرسل، وبمعنى الرسالة، فجعل ثم بمعنى المرسل فلم يكن بدّ من تثنيته، وجعل ههنا بمعنى الرسالة فجاز التسوية فيه ـ إذا وصف به ـ بين الواحد والتثنية والجمع، كما يفعل بالصفة بالمصادر، نحو: صوم، وزور، قال [من المتقارب]:

أَبِكْنِي إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرَّسُو لِ أَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الْخَبَرْ[1]

فجعله للجماعة. والشاهد في الرسول بمعنى الرسالة قوله [من الطويل]:

لَقَدْ كَذَبَ الوَاشُونَ مَا فُهْتُ عِنْدَهُمْ بِسِرٍّ وَلاَ أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ[2]

= وهو حديث ابن عباس؛ رواه ابن حبان في صحيحه (١٢/٤٩٨) رقم (٥٦٨٥) عن ابن عباس قال عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «من صور صورة إنه يعذب حتى ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ فيها الروح، ومن تحلم حلماً كاذباً ـ كلف أن يعقد بين شعيرتين، ويعذب على ذلك، ومن استمع إلى قوم وهم =

---

(١) لأبي ذؤيب. وألاكه يليكه: إذا أرسله. والمصدر إلاكة، فالهمزة زائدة. والأصل: لاك يلوك، كقام يقوم. وأما ألكه: إذا أرسله أيضا، فمصدره: ألوكة وأليكة ومألكة، بضم اللام وفتحها. ومألك بضمها وقيل: ألاكه، إذا تحمل رسالته. فالمعنى: أرسلني، أو تحمل رسالتي إليها. ويروى: إليه: أي: إلى ذلك الأمر. والرسول في الأصل مصدر، فجاز إفراده مع تعدد معناه، ولذلك عاد إليه ضمير الجمع في أعلمهم. وشبه الخبر بمكان ذي جهات على طريق المكنية. والنواحي تخييل. أو شبه توابع الخبر التي يسأل عنها تبعاً له بالنواحي على طريق التصريحية، يعني أنه أعلم من غيره بذلك.

ينظر شرح أشعار الهذليين (ص ١١٣)، لسان العرب (لوك) (رسل)، المخصص (١٢/ ٢٢٥)، تاج العروس (ألك).

(٢) حلفت برب الراقصات إلى منى خلال الملا يمددن كلَّ جديل
لقد كذب الواشون ما فهت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول
فلا تعجلي يا عز أن تتفهمي بنصح أتى الواشون أم بحبول

لكثير صاحب عزة. والراقصات: المطايا السائرات إلى منى في الحج، خلال الملا: أي في أثناء الناس. والجديل الرسن في عنقها تمده به. والواشي: الذي يحسن الكلام ويموهه، ويخلط الصدق بالكذب، ويحرف الكلم عن مواضعه. و«ما» نافية، أي: ما تفوهت عندهم بسر، ولا أرسلتهم إلى أحد برسول، أي برسالة، فهو في الأصل مصدر. وقد يطلق على المرسل، وهو الظاهر في رواية؛ (ولا راسلتهم برسول) أي لا شافهتهم بالسر ولا أرسلت إليهم رسولاً به. وهذه الرواية أوفق بالمقابلة. ويمكن أن أرسلتهم بمعنى أرسلت إليهم، والأصل: يا عزة، فرخم بحذف التاء، أن تتفهمي: أي: في أن تتفهمي. أو لأجل أن تتفهمي، بنصح، أي: أبنصح أتى الواشون إليك، أم بحبول: جمع حبل بالكسر: وهي الداهية العظيمة، ولا أدهى من الكذب.

ينظر: ديوانه ص ١١٠، ولسان العرب (رسل)، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ١٢/ ٣٩١، وديوان الأدب ١/ ٣٩٥، ولسان العرب (رسل)، وتاج العروس (رسل) (وفيه «برسيل» مكان «برسولِ).

ويجوز أن يوحد، لأنّ حكمهما لتساندهما واتفاقهما على شريعة واحدة، واتحادهما لذلك وللإخوة كان حكماً واحداً، فكأنهما رسول واحد، أو أريد أنّ كل واحد منا ﴿أَنْ أَرْسِلْ﴾ بمعنى: أي أرسل؛ لتضمن الرسول معنى الإرسال. وتقول: أرسلت إليك أن افعل كذا، لما في الإرسال من معنى القول، كما في المناداة والكتابة ونحو ذلك. ومعنى هذا الإرسال: التخلية والإطلاق كقولك: أرسل البازي، يريد: خلهم يذهبوا معنا إلى فلسطين، وكانت مسكنهما. ويروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة، حتى قال البواب: إنّ ههنا إنساناً يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال: ائذن له لعلنا نضحك منه، فأدّيا إليه الرسالة، فعرف موسى فقال له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾ حذف فأتيا فرعون فقالا له ذلك، لأنه معلوم لا يشتبه. وهذا النوع من الاختصار كثير في التنزيل. الوليد: الصبي لقرب عهده من الولادة. وفي رواية عن أبي عمرو: من عمرك. بسكون الميم ﴿سِنِينَ﴾ قيل: مكث عندهم ثلاثين سنة. وقيل: وكز القبطي وهو ابن ثنتي عشرة سنة، وفرّ منهم على أثرها، والله أعلم بصحيح ذلك. وعن الشعبي: فعلتك بالكسرد وهي قتله القبطي، لأنه قتله بالوكزة وهو ضرب من القتل. وأما الفعلة؛ فلأنها كانت وكزة واحدة. عدّد عليه نعمته من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال، ووبخه بما جرى على يده من قتل خبازه، وعظم ذلك وفظعه[1] بقوله ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ يجوز أن يكون حالاً. أي: قتلته وأنت لذاك من الكافرين بنعمتي. أو أنت إذ ذاك ممن تكفرهم الساعة،

= له كارهون صب في أذنيه الآنك يوم القيامة».

ورواه أبي داود (٢/ ٧٢٤) كتاب الأدب، باب ما جاء في الرؤيا الحديث (٥٠٢٤). وابن حبان (١٢/ ٤٩٩) رقم (٥٦٨٦)، بلفظ: «ومن استمع إلى حديث قوم يفرون به منه صب في أذنيه الآنك» اهـ.

وأصل الحديث عند الشيخين وغيرهما، والحديث ذكره ابن الأثير في النهاية بلفظ المصنف (١/ ١٢١).

قال الحافظ: لم أجده بهذا اللفظ والمحفوظ «صب في أذنيه الآنك» وهو الرصاص. وذكره ابن الأثير في النهاية بلفظ: «البرم الدم» وقال: هو الكحل المذاب. قلت: وإنما تلقاه ابن الأثير عن الفائق، فرجع إلى الزمخشري. انتهى.

---

(١) قال محمود: «عدد نعمته عليه ووبخه بما جرى على يديه من قتل خبازه وفظعه عليه بقوله: وفعلت فعلتك» قال أحمد: ووجه التفظيع عليه من ذلك أن في إتيانه به مجملا مبهماً، إيذاناً بأنه لفظاعته مما لا ينطق به إلا مكنياً عنه. ونظيره في التفخيم المستفاد من الإبهام قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾، ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ ومثله كثير، والله أعلم.

وقد افترى عليه أو جهل أمره؛ لأنه كان يعيشهم بالتقية، فإنّ الله تعالى عاصم من يريد أن يستنبئه من كل كبيرة ومن بعض الصغائر، فما بال الكفر. ويجوز أن يكون قوله ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ حكما عليه بأنه من الكافرين بالنعم، ومن كانت عادته كفران النعم لم يكن قتل خواص المنعم عليه بدعا منه. أو بأنه من الكافرين لفرعون وإلهيته. أو من الذين كانوا يكفرون في دينهم، فقد كانت لهم آلهة يعبدونهم، يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، وقرئ: إلهتك، فأجابه موسى بأن تلك الفعلة إنما فرطت منه وهو ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي الجاهلين. وقراءة ابن مسعود: من الجاهلين، مفسرة. والمعنى: من الفاعلين فعل أولي الجهل والسفه. كما قال يوسف لإخوته ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩]أو المخطئين كمن يقتل خطأ من غير تعمد للقتل. أو الذاهبين عن الصواب. أو الناسين، من قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وكذب فرعون ودفع الوصف بالكفر عن نفسه، وبرّ ساحته، بأن وضع الضالين موضع الكافرين رَبْئاً بمحل من رشح للنبوّة عن تلك الصفة، ثم كرّ على امتنانه عليه بالتربية، فأبطله من أصله واستأصله من سنخه[1]، وأبى أن يسمي نعمته إلا نقمة. حيث بين أن حقيقة إنعامه عليه تعبيد بني إسرائيل؛ لأن تعبيدهم وقصدهم بذبح أبنائهم هو السبب في حصوله عنده وتربيته، فكأنه امتن عليه بتعبيد قومه إذا حققت، وتعبيدهم: تذليلهم واتخاذهم عبيداً. يقال: عبدت الرجل وأعبدته، إذا اتخذته عبداً، قال [من البسيط]:

عَلَامَ يُعْبِدُنِي قَوْمِي وَقَدْ كَثُرَتْ ... فِيهِمْ أَبَاعِرُ مَا شَاءُوا وَعُبْدَانُ؟[2] ٢/ ٥٦ب

فإن قلت: إذا جواب وجزاء معا، والكلام وقع جواباً لفرعون، فكيف وقع جزاء

---

(١) قوله «واستأصله من سنخته» في الصحاح «السنخ» الأهل، وسنخ في العلم سنوخاً رسخ: وسنخ الدهر ـ بالكسر ـ: لغة في زنخ، إذا فسد وتغير ريحه. يقال: بيت له سنخة وسناخة اهـ. (ع)

(٢) علام: استفهام إنكاري عن العلة، أي: على أي شيء. وأعبدت الرجل وعبدته: إذا اتخذته عبداً. والأباعر: جمع بعير، يطلق على الذكر والأنثى من الإبل. والعبد: يجمع على عبدان بالكسر والضم وعبدي، بتشديد الدال مقصوراً وممدوداً، ومعبوداً، وعباد، وأعبد، وعبيد، وعبد بضمتين وبفتحتين، يقول: لأي شيء يتخذوني عبداً، والحال أنه كثرت فيهم الإبل والعبيد بسببي، فليتخذوا منها ما شاؤوا. وما شاؤوا: بدل من الأباعر أو واقع موقع المصدر لكثرت، دلالة على التكثير. وفي هذه الحال: تهكم بهم ودلالة على حمقهم. ويجوز أن المعنى: والحال أن بعضهم كالأباعر، وبعضهم عبيد، فليكتفوا ببعضهم عني. وقيل: يجوز أن التقييد بهذه الحالة، لأنها التي حملتهم على التكبر عليه.

وهو للفرزدق في ديوانه ص ١٨٤ (طبعة الصاوي)، ولسان العرب (عبد)، وبلا نسبة في لسان العرب (عبد)، وديوان الأدب ٢/ ٢٩٢، وأساس البلاغة (عبد)، وتهذيب اللغة ٢/ ٢٣٣، ونوادر أبي زيد ص ٨٧، وتاج العروس (عبد).

قلت: قول فرعون: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ فيه معنى: إنك جازيت نعمتي بما فعلت، فقال له موسى: نعم فعلتها مجازياً لك، تسليماً لقوله، لأنّ نعمته كانت عنده جديرة بأن تجازى بنحو ذلك الجزاء. فإن قلت: لم جمع الضمير في منكم وخفتكم؟ مع إفراده في تمنها وعبدت؟ قلت: الخوف والفرار لم يكونا منه وحده، ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله، بدليل قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾ [القصص: ٢٠]، وأما الامتنان فمنه وحده، وكذلك التعبيد. فإن قلت: (تلك) إشارة إلى ماذا. و﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ ما محلها من الإعراب؟ قلت: تلك إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة، لا يدري ما هي إلا بتفسيرها. ومحل ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ الرفع عطف بيان لتلك. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ [الحجر: ٦٦] والمعنى: تعبيدك بني إسرائيل نعمة تمنها علي. وقال الزجاج: ويجوز أن يكون (أن) في موضع نصب، المعنى: إنما صارت نعمة عليّ لأن عبدت بني إسرائيل؛ أي: لو لم تفعل ذلك لكفلني أهلي ولم يلقوني في اليم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾

لما قال له بوّابه إن ههنا من يزعم أنه رسول رب العالمين قال له عند دخوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يريد: أي شيء رب العالمين. وهذا السؤال لا يخلو: إما أن يريد به أي شيء هو من الأشياء التي شوهدت وعرفت أجناسها، فأجاب بما يستدل به عليه من أفعاله الخاصة، ليعرّفه أنه ليس بشيء مما شوهد وعرف من الأجرام والأعراض، وأنه شيء مخالف لجميع الأشياء، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وإما أن يريد به: أي شيء هو على الإطلاق، تفتيشاً عن حقيقته الخاصة ما هي، فأجابه بأنّ الذي إليه سبيل وهو الكافي في معرفته معرفة ثباته بصفاته، استدلالاً بأفعاله الخاصة على ذلك. وأمّا التفتيش عن حقيقته الخاصة التي هي فوق فطر العقول، فتفتيش عما لا سبيل إليه، والسائل عنه متعنت غير طالب للحق. والذي يليق بحال فرعون ويدل عليه الكلام: أن يكون سؤاله هذا إنكار لأن يكون للعالمين رب سواه لادعائه الإلهية، فلما أجاب موسى بما أجاب، عجب قومه من جوابه حيث نسب الربوبية إلى غيره، فلما ثنى بتقرير قوله، جننه إلى قومه وطنز به[1]، حيث سماه رسولهم، فلما ثلث بتقرير آخر: احتدّ واحتدم وقال: لئن اتخذت إلهاً غيري. وهذا يدل على صحة هذا الوجه الأخير.

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾

(١) قوله «وطنز به» أي: سخر به واحتدم، أي: التهب صدره غيظاً. أفاده الصحاح. (ع)

فإن قلت: كيف قيل ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ على التثنية، والمرجوع إليه مجموع؟ قلت: أريد وما بين الجنسين، فعل بالمضمر ما فعل بالظاهر من قال [من البسيط]:

. . . . . فِي الْهَيْجَا جِمَالَيْنِ[1]

فإن قلت: ما معنى قوله ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ وأين عن فرعون وملئه الإيقان؟ قلت: معناه إن كان يرجى منكم الإيقان الذي يؤدي إليه النظر الصحيح نفعكم هذا الجواب، وإلا لم ينفع. أو إن كنتم موقنين بشيء قط فهذا أولى ما توقنون به، لظهوره وإنارة دليله.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

فإن قلت: ومن كان حوله؟ قلت: أشراف قومه قيل: كانوا خمسمائة رجل عليهم الأساور وكانت للملوك خاصة. فإن قلت: ذكر السموات والأرض وما بينهما قد استوعب به الخلائق كلها، ما معنى ذكرهم وذكر آبائهم بعد ذلك وذكر المشرق والمغرب؟ قلت: قد عمم أوّلا، ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم. لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه، وما شاهد وعاين من الدلائل على الصانع، والناقل من هيئة إلى هيئة وحال إلى حال من وقت ميلاده إلى وقت وفاته، ثم خصص المشرق والمغرب، لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم في فصول السنة وحساب مستو من أظهر ما استدل به؛ ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل الله، عن

---

(١) سعى عقالاً فلم يترك لنا سبدًا فكيف لو قد سعى عمرو عقالين؟
لأصبح الناس أو بادا ولم يجدوا عند التفرق في الهيجا جمالين

الساعي: المنصوب لأخذ الزكاة. والعقال: زكاة العام، والمراد به هنا العام، لأنه جرى مجرى الظرف. والسبد: الشيء القليل. يقال: لا له سبد ولا لبد، أي: لا قليل ولا كثير. وقال الأصمعي: الأول من الشعر، والثاني من الصوف. والأوباد: جمع وبد بفتحتين، وأصله ضيق العيش وسوء الحال، فاستعمل استعمال الصفات للمبالغة، وثنى الجمال على معنى نوعين منها أو طائفتين منها ولو من نوع واحد. يقول: سعى سنة واحدة لأخذ زكاتها، فظلمنا ولم يترك لنا شيئاً قليلاً من مالنا، فكيف يكون حالنا لو سعى عامين. وفي ذكر عمرو بعد تقدم ضميره نوع من التهويل. ويحتمل أنه من باب التنازع، فيجوز أن الظاهر فاعل الأول، وفاعل الثاني ضميره، وقوله «لأصبح» مرتب على محذوف، أي: لو سعى عقالين، لأصبح الناس هلكى من الفقر، ولم يجدوا عند تفرقهم في الحرب نوعين من الجمال: لكل فريق منهما نوع، فيختل أمر الغزوات لاحتمال محاربة العدو في جهتين بل في جهات، فيحتاج إلى جمالين، بل إلى جمالات.
وهو لعمرو بن العداء في خزانة الأدب ٧/ ٥٧٩، ٥٨٠، وشرح شواهد الإيضاح ص ٥٦٠، ولسان العرب (وبد)، ١١/ ٤٦٤ (عقل)، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر ٤/ ٢٠٣، وشرح المفصل ٤/ ١٥٣، ومجالس ثعلب ١/ ١٧١، والمقرب ٢/ ٤٣.

الاحتجاج بالإحياء والإماتة على نمروذ بن كنعان، فبهت الذي كفر. وقرئ: رب المشارق والمغارب. الذي أرسل إليكم بفتح الهمزة. فإن قلت: كيف قال أوّلاً ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ وآخراً ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؟ قلت: لاين أوّلاً، فلما رأى منهم شدّة الشكيمة [1] في العناد وقلة الإصغاء إلى عرض الحجج خاشن وعارض: إنّ رسولكم لمجنون، بقوله: إن كنتم تعقلون.

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾

فإن قلت: ألم يكن: لأسجننك، أخصر من ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ ومؤدياً مؤداه؟ قلت: أما أخصر فنعم. وأما مؤدّ مؤدّاه فلا؛ لأنّ معناه: لأجعلنك واحداً ممن عرفت حالهم في سجوني. وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه ٢/ ٥٧أ فيطرحه في هوّة ذاهبة في الأرض بعيدة العمق فردًا لا يبصر فيها ولا يسمع، فكان ذلك أشدّ من القتل وأشدّ.

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾

الواو في قوله: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ﴾ واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام. معناه: أتفعل بي ذلك ولو جئتك بشيء مبين، أي: جائياً بالمعجزة. وفي قوله: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أنه لا يأتي بالمعجزة إلا الصادق في دعواه، لأن المعجزة تصديق من الله لمدعي النبوّة، والحكيم لا يصدّق الكاذب. ومن العجب أن مثل فرعون لم يخف عليه هذا، وخفي على ناس من أهل القبلة [2] حيث جوّزوا القبيح على الله تعالى حتى لزمهم تصديق الكاذبين بالمعجزات [3]، وتقديره: إن كنت من الصادقين في دعواك أتيت به، فحذف الجزاء، لأن الأمر بالإتيان به يدل عليه.

---

(١) قوله شدة الشكيمة؛ في الصحاح: فلان شديد الشكيمة، إذا كان شديد النفس أنفاً أبيا. (ع)

(٢) قوله «وخفي على ناس من أهل القبلة» يريد أهل السنة، حيث قالوا: إن كلا من الحسن والقبيح بقضاء الله تعالى وقدره، ولم يلزمهم باطل كما بين في علم التوحيد. (ع)

(٣) قال محمود: «علم فرعون أنه لا يأتي بالمعجزة إلا صادق في دعواه، لأن المعجزة تصديق من الله تعالى لمدعي النبوة، والحكيم لا يصدق الكاذب. ومن العجب أن فرعون لم يخف عليه هذا وخفي على طائفة من أهل القبلة، حيث جوزوا القبيح على الله تعالى حتى لزمهم تصديق الكاذبين بالمعجزات. انتهى كلامه» قال أحمد: ليته سلم وجه تصنيفه من ثآليل هذه الأباطيل، وكلف هذا التكليف في كيده لأهل السنة وإن كيده لفي تضليل، بينا هو يعرض بتفضيل فرعون عليهم، إذا هو قد حتم على إخوانه القدرية أنهم فواعنة، وأن كلاً منهم إذا فتش نفسه وجد فيها نصيباً من فرعنته حيث يقول ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ لأنهم يعتقدون أن أفعالهم خلقهم، وأنهم لها مبدعون خالقون كلا إنهم لهم المبتدعون المختلقون، لأنهم حجروا على الله تعالى أن يفعل إلا ما توطأت أوهامهم، على أنه =

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر الثعبانية، لا شيء يشبه الثعبان، كما تكون الأشياء المزوّرة بالشعوذة والسحر. وروي أنها انقلبت حية ارتفعت في السماء قدر ميل، ثم انحطت مقبلة إلى فرعون، وجعلت تقول: يا موسى، مرني بما شئت. ويقول فرعون: أسألك بالذي أرسلك إلا أخذتها، فأخذها فعادت عصا ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ دليل على أن بياضها كان شيئاً يجتمع النظارة على النظر إليه، لخروجه عن العادة، وكان بياضاً نورياً. روي أنّ فرعون لما أبصر الآية الأولى قال: فهل غيرها؟ فأخرج يده فقال له: ما هذه؟ قال: يدك فما فيها؟ فأدخلها في إبطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشى الأبصار[1] ويسدّ الأفق.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

فإن قلت: ما العامل في ﴿حَوْلَهُۥ﴾؟ قلت: هو منصوب نصبين: نصب في اللفظ، ونصب في المحل؛ فالعامل في النصب اللفظي ما يقدر في الظرف، والعامل في النصب

= حسن بالنسبة إلى الخلق في الشاهد. فمن ثم أشركوا به وهم لا يشعرون. ولما هدى الله تعالى أهل السنة إلى التوحيد الحق، اعتقدوا أن كل شيء هو مخلوق لله تعالى لا شريك له في ملكه، وأن كل ممكن يجوز أن ينظمه سلطان القدرة الأزلية في سلكه، فكان من الممكنات أن يبتلي الله عباده بخرق العادات على أيدي الكذابين، ومراده إظهار الضلالات: وقد اندرج ذلك لكونه ممكناً تحت سطوة القدرة حقاً بيناً، ثم لم يلزم من ذلك لله الحمد خرم في الدين، فإن توهم ناظر بعين الهوى والغرض، معنون عما في قلبه من مرض: أن ذلك يجر إلى عدم الوثوق بمعجزات الأنبياء، حيث كان على يد غيرهم من الكذابين الأشقياء. قيل: معاذ الله أن نأخذ ذلك بنفس مطمئنة بصدق الأنبياء، آمنة بحصول العلم لها من وقوع ما جوزه العقل، ولو قدح الامكان العقلي في علم حاصل يقيني، للزم الآن الشك في أن جبال الأرض قد عادت تبراً أحمر، وترابها مسكاً أذفر، وانقلبت البحار دما عبيطاً لأن ذلك ممكن في العقل بلا خلاف، ولا يشكك نفسه في هذا الإمكان إلا ذو خبل وعته وعمي وعمه، وأين الزمخشري من الحديث الصحيح في الشاب الذي يكذب الدجال فيقسمه بالسيف جزلتين فيمشي بينهما، ثم يقول له: عد فيعود حياً، فيقول له: ما ازددت فيك إلا بصيرة، أنت الدجال الذي وصفه لنا رسول الله ﷺ، فيهم به ثاني مرة فلا يسلط عليه. قال النبي ﷺ: وهو حينئذ خير أهل الأرض، أو من خير أهل الأرض، أفرأيت هذا المؤمن لما نظر انخراق العادة على يد أكذب الكاذبين حتى شاهد ذلك في نفسه، لم يشككه ذلك في معلومه، فلم يتلكأ في معاودة تكذيبه، ولكن ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾.

(١) قوله «ولها شعاع يكاد يغشي الأبصار» في الصحاح «الغشاء»: الغطاء .اهـ. ولعل عبارة المصنف يعشى بالعين المهملة، وفي الصحاح: «العشا» مقصور: مصدر: الأعشى، وهو الذي لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار. (ع)

المحلي وهو النصب على الحال: قال: ولقد تحير فرعون لما أبصر الآيتين، وبقي لا يدري أي طرفيه أطوف، حتى زلّ عنه ذكر دعوى الإلهية، وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية، وارتعدت فرائصه، وانتفخ سحره خوفاً وفرقاً[1]؛ وبلغت به الاستكانة لقومه الذين هم بزعمه عبيده وهو إلههم: أن طفق يؤامرهم ويعترف لهم بما حذر منه وتوقعه وأحسّ به من جهة موسى عليه السلام وغلبته على ملكه وأرضه، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ قول باهت إذا غلب ومتمحل إذا لزم ﴿تَأْمُرُونَ﴾ من المؤامرة وهي المشاورة. أو من الأمر الذي هو ضدّ النهي: جعل العبيد آمرين وربهم مأمورا لما استوى عليه من فرط الدهش والحيرة. وماذا منصوب: إما لكونه في معنى المصدر، وإما لأنه مفعول به من قوله: أمرتك الخير.

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾

قرئ: أرجئه وأرجه: بالهمز والتخفيف، وهما لغتان، يقال: أرجأته وأرجيته، إذا أخرته. ومنه: المرجئة[2]، وهم الذين لا يقطعون بوعيد الفساق ويقولون: هم مرجئون لأمر الله. والمعنى: أخره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة. وقيل: احبسه ﴿حَٰشِرِينَ﴾ شرطاً يحشرون السحرة[3]، وعارضوا قوله: إن هذا لساحر، بقولهم: بكل سحار، فجاءوا بكلمة الإحاطة وصفة المبالغة، ليطامنوا من نفسه ويسكنوا بعض قلقه. وقرأ الأعمش: بكل ساحر.

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

اليوم المعلوم: يوم الزينة. وميقاته. وقت الضحى؛ لأنه الوقت الذي وقته لهم موسى صلوات الله عليه من يوم الزينة في قوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩]

---

(١) قوله: «وانتفخ سحره خوفاً وفرقاً» في الصحاح: «السحر»: الرئة. ويقال للجبان: قد انتفخ سحره. (ع)

(٢) قال محمود: «معناه أخره. ومنه المرجئة الذين لا يقطعون بوعيد الفساق ويقولون: هم مرجئون لأمر الله» قال أحمد: ضاقت عليه المسالك في تفسير الأرجاء، حتى استدل عليه بالمرجئة، وصرف هذا اللقب لأهل السنة، فإنهم هم الذين لا يقطعون بوعيد فساق المؤمنين، ويقولون: أمرهم إلى الله، إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم. فإن كانت المرجئة هم المؤمنون بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ اللهم فاشهد أنا مرجئة.

(٣) قوله «شرطاً يحشرون السحرة» الشرط ـ محركة ـ: الحرس، سموا بذلك لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها، أفاده الصحاح. (ع)

والميقات: ما وقت به، أي حدد من زمان أو مكان. ومنه: مواقيت الإحرام ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ استبطاء لهم في الاجتماع، والمراد منه: استعجالهم واستحثاثهم، كما يقول الرجل لغلامه: هل أنت منطلق: إذا أراد أن يحرّك منه ويحثه على الانطلاق، كأنما يخيل له أن الناس قد انطلقوا وهو واقف، ومنه قول تأبط شرًا [من البسيط]:

هَلْ أَنْتَ بَاعِثُ دِينَارٍ لِحَاجَتِنَا ... أَوْ عَبْدَ رَبٍّ أَخَا عَوْنٍ بْنِ مِخْرَاقِ؟[1]

يريد: ابعثه إلينا سريعاً ولا تبطىء به ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾ أي في دينهم إن غلبوا موسى، ولا نتبع موسى في دينه. وليس غرضهم باتباع السحرة[2]، وإنما الغرض الكلي: أن لا يتبعوا موسى، فساقوا الكلام مساق الكناية؛ لأنهم إذا اتبعوهم لم يكونوا متبعين لموسى عليه السلام.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾

وقرئ: نعم، بالكسر[3]، وهما لغتان، ولما كان قوله ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ في معنى جزاء الشرط، لدلالته عليه، وكان قوله: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ معطوفاً عليه ومدخلاً في حكمه، دخلت إذا قارّة في مكانها الذي تقتضيه من الجواب والجزاء، وعدهم أن يجمع لهم إلى الثواب على سحرهم الذي قدروا أنهم يغلبون به موسى: القربة ٢/ ٥٧ب عنده والزلفى.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾

أقسموا بعزة فرعون وهي من أيمان الجاهلية، وهكذا كل حلف بغير الله، ولا يصح في الإسلام إلا الحلف بالله معلقاً ببعض أسمائه أو صفاته، كقولك: بالله، والرحمن، وربي، ورب العرش، وعزة الله، وقدرة الله، وجلال الله، وعظمة الله. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالطواغيت، ولا تحلفوا إلا بالله،

---

(١) لتأبط شراً. وقيل: لجرير الخطفي، وهل: استفهام استبطائي فيه حث على الفعل. ودينار: اسم رجل وعبد رب كذلك، وهو نصب عطفاً على محل دينار، لأنه مفعول معنى. وأخا عون: نعت له. وقيل: منادى. و(عون ومخراق) اسمان لرجلين. ويروى «عوف» بالفاء.
ينظر البيت في الكتاب ١/ ١٧١، خزانة الأدب ٧/ ٢١٥، همع الهوامع ٢/ ١٤٥، الدرر ٢/ ٢٠٤، المقتضب ٤/ ١٥١، الدر المصون ٣/ ١٣٤.

(٢) قوله «باتباع السحرة» لعله: اتباع، كعبارة النسفي. (ع)

(٣) قوله «وقرىء نعم بالكسر» أي كسر العين، كما في الصحاح. (ع)

ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون» (١٠٧٥) ولقد استحدث الناس في هذا الباب في إسلامهم جاهلية نسيت، لها الجاهلية الأولى، وذلك أنّ الواحد منهم لو أقسم بأسماء الله كلها وصفاته على شيء: لم يقبل منه، ولم يعتدّ بها حتى يقسم برأس سلطانه، فإذا أقسم به فتلك عندهم جهد اليمين التي ليس وراءها حلف لحالف.

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم وكيدهم، ويزوّرونه فيخيلون في حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى، بالتمويه على الناظرين أو إفكهم: سمى تلك الأشياء إفكاً مبالغة. روي أنهم قالوا: إن يك ما جاء به موسى سحراً فلن يغلب، وإن كان من عند الله فلن يخفى علينا، فلما قذف عصاه فتلقفت ما أتوا به، علموا أنه من الله فآمنوا.

١٠٧٥ ـ أخرجه أبو داود (٣/ ٢٢٢) كتاب الأيمان والنذور: باب في كراهية الحلف بالآباء حديث (٣٢٤٨)، والنسائي (٧/ ٥)، كتاب الأيمان والنذور: باب الحلف بالأمهات كلاهما من طريق عبيد الله بن معاذ قال: ثنا أبي قال: ثنا عوف عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة مرفوعا بلفظ: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد، ولا تحلفوا إلا بالله، ولا تحلفوا إلا وأنتم صادقون».
وأخرجه النسائي (٧/ ٧) كتاب الأيمان والنذور باب الحلف بالطواغيت من طريق الحسن عن عبد الرحمن بن سمرة مرفوعاً: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بالطواغيت» وللحديث شاهد من حديث ابن عمر.
أخرجه مالك (٢/ ٤٨٠) كتاب النذور والأيمان / باب جامع الأيمان (١٤) والبخاري ١١/ ٥٣٨ كتاب الأيمان والنذور / باب لا تحلفوا بآبائكم (٦٦٤٦) ومسلم (٢/ ١٢٦٧) كتاب الأيمان / باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى (١٦٤٦/ ٣) والترمذي (١٥٣٤) والدارمي (٢/ ١٨٥) وابن حبان ١٠/ ٢٠١ ـ ٢٠٤ كتاب الأيمان حديث (٤٣٥٩ ـ ٤٣٦٠ ـ ٤٣٦١)، والبيهقي (١٠/ ٢٨) كتاب الأيمان / باب كراهية الحلف بغير الله عز وجل وأحمد في المسند ٢/ ١١ ـ ١٧ ـ ١٤٢، والحميدي (٢/ ٣٠١ / ٦٨٦) وأبو نعيم في الحلية (٩/ ١٦٠) من طرق عن نافع عن ابن عمر: «أن رسول الله ـ ﷺ ـ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب وهو يحلف بأبيه فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت».
وأخرجه البخاري ١١/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩ كتاب الأيمان والنذور / باب لا تحلفوا بآبائكم (٦٦٤٧) ومسلم (٢/ ١٢٦٦) كتاب الأيمان / باب النهي عن الحلف بغير الله (١٦٤٦) وأبو داود (٢/ ٢٤٢) كتاب الأيمان / باب في كراهية الحلف بالآباء (٣٢٥٠).
قال الحافظ: أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة دون قوله: «ولا تحلفوا إلا بالله» وقال: «بالأنداد» بدل: «الطواغيت»، وله من حديث عبد الرحمن بن سمرة: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بالطواغيت»، مختصر وفي الصحيحين عن ابن عمر رفعه: «من كان حالفا فلا يحلف إلا بالله». انتهى.

وعن عكرمة ـ رضي الله عنه ـ: أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء، وإنما عبر عن الخرور بالإلقاء، لأنه ذكر مع الإلقاءات، فسلك به طريق المشاكلة. وفيه أيضاً مع مراعاة المشاكلة أنهم حين رأوا ما رأوا، لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين، كأنهم أخذوا فطرحوا طرحاً. فإن قلت: فاعل الإلقاء ما هو لو صرح به؟ قلت: هو الله عزّ وجل بما خوّلهم من التوفيق. أو إيمانهم. أو ما عاينوا من المعجزات الباهرة، ولك أن لا تقدّر فاعلاً؛ لأنّ (ألقوا) بمعنى خرّوا وسقطوا ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ عطف بيان لرب العالمين، لأنّ فرعون لعنة الله عليه كان يدعي الربوبية، فأرادوا أن يعزلوه. ومعنى إضافته إليهما في ذلك المقام: أنه الذي يدعو إليه هذان، والذي أجرى على أيديهما ما أجرى.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي وبال ما فعلتم.

﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾

الضر والضير والضور: واحد، أرادوا: لا ضرر علينا في ذلك، بل لنا فيه أعظم النفع لما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله، من تكفير الخطايا والثواب العظيم، مع الأعواض الكثيرة. أو لا ضير علينا فيما تتوعدنا به من القتل أنه لا بد لنا من الانقلاب إلى ربنا بسبب من أسباب الموت. والقتل أهون أسبابه وأرجاها. أو لا ضير علينا في قتلك، إنك إن قتلتنا انقلبنا إلى ربنا انقلاب من يطمع في مغفرته ويرجو رحمته، لما رزقنا من السبق إلى الإيمان وخبر ﴿لَا﴾ محذوف. والمعنى: لا ضير في ذلك، أو علينا ﴿أَن كُنَّآ﴾ معناه: لأن كنا، وكانوا أوّل جماعة مؤمنين من أهل زمانهم، أو من رعية فرعون، أو من أهل المشهد. وقرئ: إن كنا، بالكسر وهو من الشرط الذي يجيء به المدلّ بأمره[1]، المتحقق لصحته، وهم كانوا متحققين أنهم أوّل المؤمنين. ونظيره قول العامل لمن يؤخر جعله: إن كنت عملت لك فوفني حقي ومنه قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ [الممتحنة: ١] مع علمه أنهم لم يخرجوا إلا لذلك.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾

(١) قوله «المدل بأمره» أي الواثق به. أفاده الصحاح. (ع)

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

قرئ: أسر، بقطع الهمزة ووصلها. وسر ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ علل الأمر بالإسراء باتباع فرعون وجنوده آثارهم. والمعنى: أني بنيت تدبير أمركم وأمرهم على أن تتقدّموا ويتبعوكم، حتى يدخلوا مدخلكم، ويسلكوا مسلككم من طريق البحر، فأطبقه عليهم فأهلكهم. وروي: أنه مات في تلك الليلة في كل بيت من بيوتهم ولد، فاشتغلوا بموتاهم حتى خرج موسى بقومه. وروي: أنّ الله أوحى إلى موسى: أن اجمع بني إسرائيل، كل أربعة أبيات في بيت، ثم اذبحوا الجداء[1] واضربوا بدمائها على أبوابكم، فإني سآمر الملائكة أن لا يدخلوا بيتاً على بابه دم، وسآمرهم بقتل أبكار القبط، واخبزوا خبزا فطيراً[2] فإنه أسرع لكم، ثم أسر بعبادي حتى تنتهي إلى البحر فيأتيك أمري، فأرسل فرعون في أثره ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسوّر، مع كل ملك ألف، وخرج فرعون في جمع عظيم، وكانت مقدّمته سبعمائة ألف: كل رجل على حصان وعلى رأسه بيضة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: خرج فرعون في ألف ألف حصان سوى الإناث ٢/٥٨إ فلذلك استقل قوم موسى عليه السلام وكانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً، وسماهم شرذمة قليلين ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ محكى بعد قول مضمر. والشرذمة: الطائفة القليلة. ومنها قولهم: ثوب شراذم، للذي بلى وتقطع قطعاً، ذكرهم بالاسم الدال على القلة، ثم جعلهم قليلاً بالوصف، ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلاً، واختار جمع السلامة الذي هو للقلة[3]، وقد يجمع القليل على أقلة وقلل[4]. ويجوز أن يريد بالقلة: الذلة والقماءة، ولا يريد قلة العدد. والمعنى: أنهم لقلتهم لا يبالي بهم ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم، ولكنهم يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق صدورنا، ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر

---

(١) قوله «ثم اذبحوا الجداء» في الصحاح «الجدي» من ولد المعز. وثلاثة أجد. فإذا كثرت فهي الجداء. (ع)

(٢) قوله «واخبزوا خبزاً فطيراً» في الصحاح «الفطير»: خلاف الخمير، وكل شيء أعجلته عن إدراكه فهو فطير. (ع)

(٣) قال محمود: «وقللهم من أربعة أوجه: عبر عنهم بالشرذمة وهي تفيد القلة، ثم وصفهم بالقلة، وجمع وصفهم ليعلم أن كل ضرب منهم قليل، واختار جمع السلامة ليفيد القلة» قال أحمد: ووجه آخر في تقليلهم يكون خامساً: وهو أن جمع الصفة والموصوف منفرد، قد يكون مبالغة لصوق ذلك الوصف بالموصوف وتناهيه فيه بالنسبة إلى غيره من الموصوفين به، كقولهم: معا زيد جياع، مبالغة في وصفه بالجوع، فكذلك ههنا جمع قليلاً، وكان الأصل إفراده فيقال: لشرذمة قليلة، كما أفرد في قوله (كم من فئة قليلة) ليدل بجمعه على تناهيهم في القلة، لكن يبقى النظر في أن هذا السر يبقي الوجوه المذكورة على ما هي عليه، أو يسقط منها شيئاً ويخلفه، فتأمله والله الموفق.

(٤) قوله «وقد يجمع القليل على أقلة وقلل» في الصحاح: مثل سرير وسرر. (ع)

واستعمال الحزم في الأمور، فإذا خرج علينا خارج، سارعنا إلى حسم فساده؛ وهذه معاذير، اعتذر بها إلى أهل المدائن؛ لئلا يظنّ به ما يكسر من قهره وسلطانه. وقرئ: حذرون وحاذرون وحادرون[1]، بالدال غير المعجمة. فالحذر: اليقظ، والحاذر: الذي يجدّد حذره. وقيل: المؤدي في السلاح، وإنما يفعل ذلك حذراً واحتياطاً لنفسه. والحادر: السمين القوي، قال [من الطويل]:

أُحِبُّ الصَّبِيَّ السُّوءَ مِنْ أَجْلِ أُمِّهِ ... وَأُبْغِضُهُ مِنْ بُغْضِهَا وَهْوَ حَادِرُ[2]

أراد أنهم أقوياء أشداء. وقيل مدججون في السلاح، قد كسبهم ذلك حدارة في أجسامهم.

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾

وعن مجاهد: سماها كنوزاً لأنهم لم ينفقوا منها في طاعة الله. والمقام: المكان، يريد: المنازل الحسنة والمجالس البهية. وعن الضحاك: المنابر. وقيل السر في الحجال[3] ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه: النصب على أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفناه. والجر على أنه وصف لمقام، أي: مقام كريم مثل ذلك المقام الذي كان لهم. والرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي: الأمر كذلك. ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ فلحقوهم. وقرئ: فاتبعوهم ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ داخلين في وقت الشروق، من شرقت الشمس شروقاً إذا طلعت.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾

---

(١) قوله «وقرىء حذرون وحاذرون وحادرون» في الصحاح: وقرىء: وإنا لجميع حاذرون. وحذرون. وحذرون، أيضاً بضم الذال، حكاه الأخفش. ومعنى «حاذرون» متأهبون. وفيه: آد الرجل، أي قوى، من الأداة، فهو مؤد بالهمز، أي: شاك في السلاح. وفيه آديت للسفر فأنا مؤد له، إذا كنت متهيئاً له (ع)

(٢) الحادر: القوي الشديد، أو الشجاع الباسل، أي: إن مدار حب الولد على حب أمه، لا على حسن أوصافه وضمير «أبغضه» عائد على الصبي بدون وصفه، لكن هذه شيمة المنهمك في حب النساء. ينظر لسان العرب (حدر)، تاج العروس (حدر) تهذيب اللغة (٤/٤٠٨)، البحر المحيط (٧/١٨)، الدر المصون (٥/ ٢٧٤).

(٣) قوله «وقيل السر في الحجال» السر: الجماع، والحجال: جمع حجلة وهي بيت العروس يزين بالثياب والأسرة والستور، كذا في الصحاح. (ع)

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾

﴿سَيَهْدِينِ﴾ طريق النجاة من إدراكهم وإضرارهم. وقرئ، فلما تراءت الفئتان. إنا لمدّركون: بتشديد الدال وكسر الراء، من ادّرك الشيء إذا تتابع ففنى. ومنه قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ [النمل: ٦٦]، قال الحسن: جهلوا علم الآخرة، وفي معناه بيت الحماسة [من الطويل]:

أَبَعْدَ بَنِي أُمِّي الَّذِينَ تَتَابَعُوا ... أُرَجِّي الْحَيَاةَ أَمْ مِنَ الْمَوْتِ أَجْزَعُ؟[1]

والمعنى: إنا لمتتابعون في الهلاك على أيديهم، حتى لا يبقى منا أحد. الفرق: الجزء المتفرّق منه. وقرئ: كل فلق. والمعنى واحد. والطود: الجبل العظيم[2] المنطاد في السماء ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ﴾ حيث انفلق البحر ﴿ٱلْآخَرِينَ﴾ قوم فرعون، أي: قربناهم من بني إسرائيل: أو أدنينا بعضهم من بعض، وجمعناهم حتى لا ينجو منهم أحد، أو قدمناهم إلى البحر، وقرئ: وأزلقنا بالقاف، أي: أزللنا أقدامهم، والمعنى: أذهبنا عزهم؛ كقوله [من الطويل]:

تَدَارَكْتُمَا عَبْساً وَقَدْ ثُلَّ عَرْشُهَا ... وَذُبْيَانَ إِذْ زَلَّتْ بِأَقْدَامِهَا النَّعْلُ[3]

---

(١) أبعد بني أمي الذين تتابعوا ... أرجي حياة أم من الموت أجزع؟
ثمانية كانوا ذؤابة قومهم ... بهم كنت أعطي ما أشاء وأمنع
أولئك إخوان الصفاء رزئتهم ... وما الكف إلا أصبع ثم أصبع

لأبي الحناك البراء ربعي الفقعسي، والهمزة للاستفهام الإنكاري، والمراد التحسر والتحزن، وتتابعوا أي انقرضوا واحداً بعد واحد. أرجي: أي ارتجي حياة أم أجزع من الموت، أي: لا أفعل ذلك بعدهم وقال: بني أمي، لأن المقام مقام رقة ورحمة، فهم ثمانية كانوا رؤساء قومهم، كالذؤابة للرأس، وهي شعرها الذي يتحرك حولها، فهو تشبيه بليغ، ثم قال: كنت بهم أفعل ما أريد من الإعطاء والمنع. ويجوز بناء الفعلين للمجهول، فالمعنى: كنت بهم أنال ما أشاء وأكفي شر ما أشاء، ورزأته أصبته في ماله. ورزأته ماله. ورزأتهم: مبني للمجهول، أي: نقصني الدهر إياهم وأخذهم مني، فلا قوة لي بعدهم، كما أن الكف إذا فقدت أصابعها بطلت قوتها؛ لأن بطشها ليس إلا بالأصابع منتظمة مرتبة، فهم لي كالأصابع للكف.
ينظر البحر المحيط (٧/ ٢٠)، الدر المصون (٥/ ٢٧٥).

(٢) قوله «والطود» الجبل العظيم المنطاد في السماء» في الصحاح «طود في الجبال»: مثل طوف وطوح. والمطاود مثال المطاوح. (ع)

(٣) لزهير يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف. وعبس وذبيان كلاهما اسم قبيلة. يقول: تداركتما هاتين القبيلتين بالصلح بينهما ودفع ديات قتلاهم، وقد ثل: أي هدم عرشها. وهذا تمثيل لذهاب عزهم وفناء دواتهم. وزلت النعل بالقدم: زلقت عن مقرها، وهذا أيضاً تمثيل لاختلال أمرهم =

ويحتمل أن يجعل الله طريقهم في البحر على خلاف ما جعله لبني إسرائيل يبساً فيزلقهم فيه. عن عطاء بن السائب أن جبريل عليه السلام كان بين بني إسرائيل وبين آل فرعون، فكان يقول لبني إسرائيل: ليلحق آخركم بأولكم. ويستقبل القبط فيقول: رويدكم يلحق آخركم. فلما انتهى موسى إلى البحر قال له مؤمن آل فرعون ـ وكان بين يدي موسى: أين أمرت فهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون؟ قال: أمرت بالبحر ولا يدري موسى ما يصنع، فأوحى الله تعالى إليه: أن اضرب بعصاك البحر. فضربه فصار فيه اثنا عشر طريقاً: لكل سبط طريق. وروي أنّ يوشع قال: يا كليم الله، أين أمرت فقد غشينا فرعون والبحر أمامنا؟ قال موسى: ههنا. فخاض يوشع الماء وضرب موسى بعصاه البحر فدخلوا. وروي أنّ موسى قال عند ذلك: يا من كان قبل كل شيء، والمكوّن لكل شيء. والكائن بعد كل شيء. ويقال: هذا البحر هو بحر القلزم. وقيل: هو بحر من وراء مصر، يقال له: أساف ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أية آية، وآية لا توصف، وقد عاينها الناس وشاع أمرها فيهم، وما تنبه عليها أكثرهم، ولا آمن بالله. وبنو إسرائيل: الذين كانوا أصحاب موسى المخصوصين بالإنجاء قد سألوه بقرة يعبدونها، واتخذوا العجل، وطلبوا رؤية الله جهرة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المنتقم من أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأوليائه.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾

كان إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام / ٢/ ٥٨ب؛ ولكنه سألهم ليريهم أنّ ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء، كما تقول للتاجر: ما مالك؟ وأنت تعلم أنّ ماله الرقيق، ثم تقول له: الرقيق جمال وليس بمال. فإن قلت: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ سؤال عن المعبود فحسب، فكان القياس أن يقولوا: أصناما، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٢٣]، ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ خَيْرًا﴾ [النحل: ٣٠]. قلت: هؤلاء قد جاؤوا بقصة أمرهم كاملة كالمبتهجين بها والمفتخرين، فاشتملت على جواب إبراهيم، وعلى ما قصدوه من إظهار ما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار. ألا تراهم كيف عطفوا على قولهم نعبد ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ ولم يقتصروا على

= وفساد رأيهم. وفي البيت شبه الطباق، حيث إن الأولى أتاها العذاب من فوق رأسها. والثانية: أتاها من تحت أرجلها.

ينظر: ديوانه ص ١٠٩، ولسان العرب (عرش)، (حلف)، (ثلل)، وجمهرة اللغة ص ٨٤، وكتاب العين ١/ ٢٤٩، ومقاييس اللغة ١/ ٣٦٩، ٤/ ٢٦٥، وأساس البلاغة (عرش)، والمخصّص ٦/ ٨، وتاج العروس (عرش)، (حلف)، (ثلل)، وديوان الأدب ١/ ١١٤.

زيادة نعبد وحده. ومثاله أن تقول لبعض الشطار: ما تلبس في بلادك؟ فيقول: ألبس البرد الأتحمي[1]، فأجرّ ذيله بين جواري الحي. وإنما قالوا: نظل، لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾

لا بد في ﴿يَسْمَعُونَكُمْ﴾ من تقدير حذف المضاف، معناه: هل يسمعون دعاءكم. وقرأ قتادة: يسمعونكم، أي: هل يسمعونكم الجواب عن دعائكم؟ وهل يقدرون على ذلك؟ وجاء مضارعاً مع إيقاعه في إذ على حكاية الحال الماضية. ومعناه: استحضروا الأحوال الماضية التي كنتم تدعونها فيها، وقولوا هل سمعوا أو أسمعوا قط. وهذا أبلغ في التبكيت.

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾

ما أجابوه بجواب المقلدين لآبائهم قال لهم: رقوا أمر تقليدكم هذا إلى أقصى غاياته وهي عبادة الأقدمين الأوّلين من آبائكم، فإن التقدّم والأوّلية لا يكون برهانا على الصحة، والباطل لا ينقلب حقاً بالقدم، وما عبادة من عبد هذه الأصنام إلا عبادة أعداء له، ومعنى العداوة قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨٢] ولأنّ المغري على عبادتها أعدى أعداء الإنسان وهو الشيطان، وإنما قال: ﴿عَدُوٌّ لِّي﴾تصويراً للمسألة في نفسه، على معنى: أني فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة للعدوّ، فاجتنبتها وآثرت عبادة من الخير كله منه، وأراهم بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسه أوّلاً وبنى عليها تدبير أمره، لينظروا فيقولوا: ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه، وما أراد لنا إلا ما أراد لروحه، ليكون أدعى لهم إلى القبول، وأبعث على الاستماع منه. ولو قال: فإنه عدوّ لكم لم يكن بتلك المثابة، ولأنه دخل في باب من التعريض، وقد يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه التصريح؛ لأنه يتأمّل فيه، فربما قاده التأمّل إلى التقبل. ومنه ما يحكى عن الشافعيّ ـ رضي الله تعالى عنه ـ أنّ رجلا واجهه بشيء فقال: لو كنت بحيث أنت، لاحتجت إلى أدب، وسمع رجل ناساً يتحدثون في الحجر فقال: ما هو ببيتي ولا بيتكم.

---

(١) قوله «البرد الأتحمي» في الصحاح «الأتحمي»: ضرب من البرود. (ع)

والعدوّ والصديق: يجيئان في معنى الوحدة والجماعة، قال [من المتقارب]:

وَقَـــوْمٍ عَـــلَـــيَّ ذَوِي مِـــرَّةٍ أَرَاهُـــمْ عَـــدُوًّا وَكَـــانُـــوا صَـــدِيـــقَـــا[1]

ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ﴾ شبها بالمصادر للموازنة، كالقبول والولوع، والحنين والصهيل ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استثناء منقطع، كأنه قال: ولكن رب العالمين ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ يريد أنه حين أتمّ خلقه ونفخ فيه الروح، عقب ذلك هدايته المتصلة التي لا تنقطع إلى كلّ ما يصلحه ويعنيه، وإلا فمن هداه إلى أن يغتذي بالدم في البطن امتصاصا، ومن هداه إلى معرفة الثدي عند الولادة، وإلى معرفة مكانه، ومن هداه لكيفية الارتضاع، إلى غير ذلك من هدايات المعاش والمعاد، وإنما قال: ﴿مَرِضْتُ﴾ دون «أمرضني» لأنّ كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه[2] وغير ذلك. ومن ثم قالت الحكماء: لو قيل لأكثر الموتى: ما سبب آجالكم؟ لقالوا التخم. وقرئ: خطاياي، والمراد: ما يندر منه من بعض الصغائر؛ لأنّ الأنبياء معصومون مختارون على العالمين. وقيل: هي قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ وقوله لسارة: هي أختي. وما هي إلا معاريض كلام، وتخييلات للكفرة، وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار. فإن قلت: إذا لم يندر منهم إلا الصغائر وهي تقع مكفرة، فما له أثبت لنفسه خطيئة أو خطايا

---

(١) المرة: القوة، وشدة الجدال. ويروى: ذوي مبرة، أي: عداوة أو فخر أو شدة. والعدو والصديق يجيئان للمذكر والمؤنث والمثنى والجمع. يقول: ورب قوم أصحاب قوة علي، أراهم اليوم أعداء وكانوا أصدقاء.

(٢) قال محمود: «إنما أضاف المرض إلى نفسه لأن كثيراً منه بتفريط الإنسان في مطعمه ومشربه» قال أحمد: والذي ذكره غير الزمخشري أن السر في إضافة المرض إلى نفسه التأدب مع الله تعالى بتخصيصه بنسبة الشفاء الذي هو نعمة ظاهرة إليه تعالى، ولعل الزمخشري إنما عدل عن هذا لأن إبراهيم عليه السلام قد أضاف الإماتة إلى الله تعالى وهي أشد من المرض، فلم يثبت عنده المعنى المذكور، ولكن المعنى الذي أبداه الزمخشري أيضاً في المرض ينكسر بالموت، فإن المرض كما يكون بسبب تفريط الإنسان في نفسه. كذلك الموت الناشىء عن سبب هذا المرض الذي يكون بتفريط الإنسان وقد أضافه إلى الله تعالى. ويمكن أن يفرق بين نسبة الموت ونسبة المرض في مقتضى الأدب: بأن الموت قد علم واشتهر أنه قضاء محتوم من الله تعالى على سائر البشر، وحكم عام لا يخص، ولا كذلك المرض. فكم من معافى منه قد بغته الموت، فالتأسي بعموم الموت لعله يسقط أثر كونه بلاء فيسوغ في الأدب نسبته إلى الله تعالى. وأما المرض فلما كان مما يخص به بعض البشر دون بعض، كان بلاء محققاً فاقتضى العلو في الأدب مع الله تعالى أن ينسبه الإنسان إلى نفسه باعتبار ذلك السبب الذي لا يخلو منه، ويؤيد ذلك أن كل ما ذكره مع المرض أخبر عن وقوعه بتاً وجزماً؛ لأنه أمر لا بد منه. وأما المرض فلما كان قد يتفق وقد لا، أورده مقروناً بشرط إذا، فقال (وإذا مرضت) وكان ممكناً أن يقول: والذي يمرضني فيشفيني كما قال في غيره، فما عدل عن المطابقة المجانسة المأثورة إلا لذلك، والله أعلم.

وطمع أن تغفر له؟ قلت: الجواب ما سبق لي: أن استغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم، وهضم لأنفسهم، ويدل عليه قوله: ﴿أَطْمَعُ﴾ ولم يجزم القول بالمغفرة. وفيه تعليم لأممهم، وليكون لطفاً لهم في اجتناب المعاصي والحذر منها، وطلب المغفرة مما يفرط منهم. فإن قلت: لم علق مغفرة الخطيئة بيوم الدين، وإنما تغفر في الدنيا؟ قلت: لأنّ أثرها يتبين يومئذٍ، وهو الآن خفي لا يعلم / ٢/ ٥٩أ.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

الحكم: الحكمة، أو الحكم بين الناس بالحق. وقيل: النبوّة؛ لأنّ النبي ذو حكمة وذو حكم بين عباد الله. والإلحاق بالصالحين: أن يوفقه لعمل ينتظم به في جملتهم، أو يجمع بينه وبينهم في الجنة. ولقد أجابه حيث قال: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾. والإخزاء: من الخزي وهو الهوان. ومن الخزاية[1] وهي الحياء. وهذا أيضاً من نحو استغفارهم مما علموا أنه مغفور وفي ﴿يُبْعَثُونَ﴾ ضمير العباد؛ لأنه معلوم. أو ضمير الضالين. وأن يجعل من جملة الاستغفار لأبيه[2]، يعني: ولا تخزني يوم يبعث الضالون وأبي فيهم ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ﴾ إلا حال من أتى الله ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ وهو من قولهم [من الوافر]:

. . . . . تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ[3]

وما ثوابه إلا السيف. وبيانه أن يقال لك: هل لزيد مال وبنون؟ فتقول: ماله وبنوه: سلامة قلبه، تريد نفي المال والبنين عنه، وإثبات سلامة القلب له بدلاً عن ذلك. وإن شئت حملت الكلام على المعنى وجعلت المال والبنين في معنى الغنى، كأنه قيل: يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم؛ لأن غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه، كما أن غناه في دنياه بماله وبنيه. ولك أن تجعل الاستثناء منقطعا، ولا بدّ لك مع ذلك من تقدير المضاف وهو الحال، والمراد بها سلامة القلب، وليست هي من جنس المال والبنين، حتى يؤوّل المعنى إلى أن المال والبنين لا ينفعان، وإنما ينفع سلامة القلب. ولو لم يقدر المضاف، لم يتحصل للاستثناء معنى. وقد جعل (من) مفعولا لينفع، أي: لا ينفع مال

---

(١) قوله «ومن الخزاية» لعله: أو من. (ع)

(٢) قوله «أو ضمير الضالين، وأن يجعل من جملة الاستغفار لأبيه» لعله عطف على المعنى، كأنه قال: ويحتمل أنه ضمير الضالين. . . إلخ. (ع)

(٣) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول عند تفسير آية ١٠ من سورة البقرة فراجعه إن شئت اهـ.

ولا بنون، إلا رجلاً سلم قلبه مع ماله حيث أنفقه في طاعة الله، ومع بنيه حيث أرشدهم إلى الدين وعلمهم الشرائع. ويجوز على هذا ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ من فتنة المال والبنين. ومعنى سلامة القلب: سلامته من آفات الكفر والمعاصي، ومما أكرم الله تعالى به خليله ونبه على جلالة محل في الإخلاص: أن حكى استثناء هذا حكاية راض بإصابته فيه. ثم جعله صفة له في قوله: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤]، ومن بدع التفاسير: تفسير بعضهم السليم باللديغ من خشية الله. وقول آخر: هو الذي سلم وسلم وأسلم وسالم واستسلم. وما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين، حين سألهم أوّلاً عما يعبدون سؤال مقرّر لا مستفهم، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع على تقليدهم آباءهم الأقدمين، فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلاً أن يكون حجة، ثم صوّر المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله عز وعلا، فعظم شأنه وعدّد نعمته، من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته، مع ما يرجى في الآخرة من رحمته، ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين، وابتهل إليه ابتهال الأوّابين، ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه وما يدفع إليه المشركون يومئذٍ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمنى الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾

الجنة تكون قريبة من موقف السعداء ينظرون إليها ويغتبطون بأنهم المحشورون إليها، والنار تكون بارزة مكشوفة للأشقياء بمرأى منهم، يتحسرون على أنهم المسوقون إليها: قال الله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ [ق: ٣١] وقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الملك: ٢٧]: يجمع عليهم الغموم كلها والحسرات، فتجعل النار بمرأى منهم، فيهلكون غماً في كل لحظة، ويوبخون على إشراكهم، فيقال لهم: أين آلهتكم؟ هل ينفعونكم بنصرتهم لكم. أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم؛ لأنهم وآلهتهم وقود النار، وهو قوله: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ﴾ أي الآلهة ﴿وَالْغَاوُونَ﴾ وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم. والكبكبة: تكرير الكب، جعل التكرير في اللفظ دليلا على التكرير في المعنى، كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقرّ في قعرها، اللهم أجرنا منها يا خير مستجار ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ شياطينه، أو متبعوه من عصاة الجن والإنس.

﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

يجوز أن ينطق الله الأصنام حتى يصح التقاول والتخاصم. ويجوز أن يجري ذلك بين العصاة والشياطين. والمراد بالمجرمين الذين أضلوهم: رؤساؤهم وكبراؤهم، كقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧] وعن السدّي: الأوّلون الذين اقتدينا بهم. وعن ابن جريج: إبليس، وابن آدم القاتل، لأنه أوّل من سنّ القتل وأنواع المعاصي، ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين ﴿وَلَا صَدِيقٍ﴾ كما نرى لهم أصدقاء، لأنه لا يتصادق في الآخرة / ٢/ ٥٩ب إلا المؤمنون. وأما أهل النار فبينهم التعادي والتباغض، قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧] أو: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء؛ لأنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله، وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس. أو أرادوا أنهم وقعوا في مهلكة علموا أنّ الشفعاء والأصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم، فقصدوا بنفيهم نفي ما يتعلق بهم من النفع؛ لأنّ ما لا ينفع: حكمه حكم المعدوم. والحميم من الاحتمام، وهو الاهتمام، وهو الذي يهمه ما يهمك. أو من الحامة بمعنى الخاصة، وهو الصديق الخاص. فإن قلت: لم جمع الشافع ووحد الصديق؟ قلت: لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق[1] ألا ترى أن الرجل

---

(١) قال محمود: «إنما جمع الشافع ووحد الصديق لكثرة الضعاء في العادة إذا نزل بإنسان خطب ممن يعرفه وممن لا يعرفه وأما الصديق فقليل» قال أحمد: العجب أن الصديق يقع على الواحد وعلى الجمع، فما الدليل على إرادة الإفراد؟ ثم لو كان المراد الإفراد لكان أعم؛ لأنه في سياق النفي، فينفي الواحد فما زاد عليه إلى ما لانهاية له، والله أعلم.
في قوله سبحانه: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.
ترى الجمع في قوله: شافعين، والإفراد في قوله «صديق» فكيف ورد هذا؟ ويجيب المفسر العلامة في عرض هذه الآية:
ولكن الأمر في حاجة إلى نظر حول «الجمع والإفراد» في نظم القرآن الكريم، فأقول:
إن جمع الكلمة جمع قلة أو كثرة أو إفرادها أو استعمال الجمع في موضع المفرد أو عكسه في سياق واحد أو سياقات كل ذلك له مدلوله وسره الذي جاء النظر عليه ليشير إليه، ولا يكمل المعنى إلا به، ولا يدرك هذه اللمحات إلا صاحب الحس البصير، وبالنظر في القرآن العظيم نلاحظ:
١ ـ أن الإفراد يفيد التفصيل والتقصي كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]. =

إذا امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته، رحمة له وحسبة، وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة. وأما الصديق ـ وهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما أهمك ـ فأعز من بيض الأنوق[1]. وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال: اسم لا معنى له. ويجوز أن يريد بالصديق: الجمع. الكرّة: الرجعة إلى الدنيا. ولو في مثل هذا

= ٢ ـ ويأتي الإفراد والجمع في الآيات الواردة في سياق واحد ولكل دلالة كما ورد في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾، ثم يأتي في نهاية هذا المقام فيقول عن الصلاة مرة أخرى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ [المؤمنون: الآيات ١: ٩]. فقد أفردت الصلاة لإفادة معنى الخشوع، وجمعت لإدراك معنى المحافظة على أعدادها وسننها.

٣ ـ ويأتي الجمع والإفراد ـ أيضاً ـ في المقام الواحد للدلالة على أخلاق الناس وأحوالهم كما ورد في قوله جل جلاله: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۝١٠٠﴾ ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾ القراءة وهي الآية التي معنا مصدراً بها هذا البحث فقد جمع الشفعاء في هذا الموقف لكثرتهم عادة، وأفرد الصديق لأنه لا يوجد إلا عزيزاً نادراً كما بين العلامة المفسر، ولابن المنير كلام فيه مناقشة.

٤ ـ وتأتي صيغة الجمع لتفيد معنى أخلاقياً نراه جلياً عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الحجرات: ٤].

فجمع «الحجرات» فيه للإشارة الخفية أنهم أتوا إليه وهو في موضع خلوته، ولهذا كانوا سفهاء في مناداته، وفي هذا إشعار بمحل رسول الله ﷺ وإجلاله، وقد وفى الزمخشري وتبعه أبو السعود الآية في هذا المقام.

٥ ـ وقد تفيد صيغة الجمع «الإجلال» لأنها موضع الواحد، كما في ضمير الجمع للواحد المعظم نفسه عند النحاة، وهذا ما تراه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ۝٧٥﴾ [الصافات: ٧٥].

٦ ـ وقد يأتي في جمع القلة مكان جمع الكثرة وبالعكس لإفادة معنى، وهذا ما وجده المفسر العلامة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

فقد وضع «أذلة» مكان «أذلاء» لإفادة أنهم قلة كما بين المفسر.

وقد وقف العلامة الزمخشري عند قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقال إن جمع «قروء» للكثرة في موضع «أقرء» جمع القلة المناسب لثلاثة من باب الاتساع وهو: التسوية في أداء المعنى المفهوم، وهذا الفهم عليه مناقشة من أستاذنا أبي موسى حيث بين أن القرآن لا يصح فيه القول بالاتساع لأن لكل كلمة معنى يقصد في مكانه ولا يجوز غيرها لأنها لا تحل محلها، وناقش المعنى مفيداً أن جمع الكثرة لإفادة وجوب الاحتياط في أداء العدة كاملة بحيث لا تتعجل ولا تطمح إلى الأزواج قبل تمامها.

واختيار كلمة «الأنفس» جمع قلة لإفادة التقليل والتهوين لتتجاوب هذه الخصوصية مع هذا السياق.

وفي نهاية هذا المبحث أقول: إن كلام الله ـ جلت حكمته ـ منظوم نظماً إلهياً وضعت فيه الكلمات بهيئتها وصورتها مع جاراتها لإفادة معنى يقصده المولى الكريم لعباده المؤمنين، ولا تصلح لفظة مكان سواها في كتاب الله، وإلا صح للبشر أن يعدلوا في كلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. «وبالله التوفيق».

«ينظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري لأبي موسى ٢٧٤ ـ ٢٧٩».

(١) قوله «فأعز من بيض الأنوق» في الصحاح: الأنوق ـ على فعول: طائر وهو الرخمة. (ع)

الموضع في معنى التمني، كأنه قيل: فليت لنا كرة. وذلك لما بين معنى «لو» و«ليت» من التلاقي في التقدير. ويجوز أن تكون على أصلها ويحذف الجواب، وهو: لفعلنا كيت وكيت.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾

القوم: مؤنثة، وتصغيرها قويمة. ونظير قوله: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ والمراد نوح عليه السلام: قولك: فلان يركب الدواب ويلبس البرود، وما له إلا دابة وبرد[1]. قيل: أخوهم؛ لأنه كان منهم، من قول العرب: يا أخا بني تميم، يريدون: يا واحداً منهم، ومنه بيت الحماسة [من البسيط]:

لاَ يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ ... فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا[2]

كان أميناً فيهم مشهوراً بالأمانة، كمحمد ﷺ في قريش ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في نصحي لكم وفيما أدعوكم إليه من الحق ﴿عَلَيْهِ﴾ على هذا الأمر، وعلى ما أنا فيه، يعني: دعاءه ونصحه ومعنى ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾: فاتقوا الله في طاعتي، وكرره ليؤكده عليهم

---

(١) قال محمود: «المراد نوح، كما تقول: فلان يركب الدواب ويلبس البرود، وما له إلا دابة وبرد» قال أحمد: لا حاجة إلى تأويل الجمع بالواحد ههنا مع القطع بأن من كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل لأنه ما من نبي إلا ومستند صدقه المعجزة الدالة على الصدق فقد كذبوا كل من استند صدقه إلى دليل المعجزة، وكذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ لأن التفرقة بينهم توجب تكذيب الكل وتصديق واحد يوجب تصديق الكل والله علم.

(٢) قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا

لقريط بن أنيف من قبيلة بلعنبر، أغار عليه ناس من بني شيبان فأخذوا منه ثلاثين بعيراً، فاستنجد قومه فلم ينجدوه، فاستغاث ببني مازن فركبوا معه، وأطردوا له مائة بعير من بني شيبان، وحرسوه إلى قومه، فمدحهم ووبخ قومه. والناجذ: السن بين الضرس والناب. وقيل: ضرس العقل. وقيل: الضرس مطلقاً. والزرافة ـ بالفتح والضم ـ: الجماعة من الناس، وبها سميت الدابة المعروفة، والوحدان ـ بالضم ـ: جمع واحد. وشبه الشر بأسد يكشر عن أنيابه على طريق المكنية فأثبت له الناجذين تخييلا. يقول: بنو مازن شجعان: إذا ظهر الشر واشتد فزعوا إليه جماعات ومنفردين، فاستعار الطيران لذلك على طريق التصريحية. أو شبههم بالطيور في السرعة والانتشار على طريق الكناية والطريق تخييل، لا يسألون صاحبهم دليلا على ما قاله حين يناديهم برفع صوته في الملمات.
ينظر ديوان الحماسة (١/ ١٣)، البحر المحيط (٨/ ٢٣٩)، الدر المصون (٦/ ٢٩١).

ويقرّره في نفوسهم، مع تعليق كل واحدة منهما بعلة، جعل علة الأوّل كونه أميناً فيما بينهم، وفي الثاني حسم طمعه عنهم.

﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾

وقرئ: وأتباعك، جمع تابع، كشاهد وأشهاد. أو جمع تبع، كبطل وأبطال. والواو للحال. وحقها أن يضمر بعدها «قد» في: واتبعك. وقد جمع الأرذل على الصحة وعلى التكسير في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧] والرذالة والنذالة: الخسة والدناءة. وإنما استرذلوهم لا تضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا. وقيل كانوا من أهل الصناعات الدنية[1] كالحياكة والحجامة. والصناعة لا تزري بالديانة، وهكذا كانت قريش تقول في أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ، وما زالت أتباع الأنبياء كذلك، حتى صارت من سماتهم وأماراتهم. ألا ترى إلى هرقل حين سأل أبا سفيان عن أتباع رسول الله ـ ﷺ ـ، فلما قال ضعفاء الناس وأراذلهم قال: ما زالت أتباع الأنبياء كذلك (١٠٧٦). وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هم الغاغة[2]. وعن عكرمة: الحاكة والأساكفة (١٠٧٧). وعن مقاتل: السفلة (١٠٧٨).

١٠٧٦ ـ أخرجه البخاري (١/ ٤٦ ـ ٤٨) كتاب بدء الوحي حديث (٦)، وأطرافه في ٥١، ٢٦٨١، ٢٨٠٤، ٢٩٤١، ٢٩٧٨، ٣١٧٤، ٤٥٥٣، ٥٩٨٠، ٦٢٦٠، ٧١٩٦، ٧٥٤١.

وأخرجه أيضاً مسلم (٣/ ١٣٩٣ ـ ١٣٩٧) كتاب الجهاد: باب كتاب النبي ـ ﷺ ـ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام حديث (٧٤/ ١٧٧٣)، والترمذي (٥/ ٦٩) كتاب الاستئذان: باب ما جاء كيف يكتب لأهل الشرك حديث (٢٧١٧) مختصراً، وأحمد (١/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣)، وعبد الرزاق (٩٧٢٤)، وابن حبان (٦٥٥٥)، وابن منده في «الإيمان» (١٤٣)، واللالكائي في «أصول الاعتقاد» (١٤٥٧)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ٣٧٧ ـ ٣٨٣) كلهم من طريق الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

قال الحافظ: متفق عليه من حديث ابن عباس عن أبي سفيان بلفظ: وسألتك ضعفاء الناس اتبعوه أم أشرافهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم، وكذلك أتباع الرسل قلت: رواه بلفظ: «أراذلهم». انتهى.

١٠٧٧ ـ ورُوى هذا أيضاً عن قتادة ومجاهد.

أخرجه ابن أبي حاتم عنهما كما في «الدر المنثور» (٥/ ١٦٨). وينظر تفسير «الوسيط» (٣/ ٣٥٧ ـ بتحقيقنا).

١٠٧٨ ـ ورُوي أيضاً عن قتادة.

أخرجه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥/ ١٦٨).

---

(١) قوله «الصناعات الدنية» لعله: الدنيئة. كعبارة النسفي. (ع)

(٢) قوله «هم الغاغة» لعله الصاغة. وفي الخازن: قال ابن عباس: يعني القافة. (ع)

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾

﴿وَمَا عِلْمِي﴾ وأي شيء علمي؟ والمراد: انتفاء علمه بإخلاص أعمالهم لله واطلاعه على سر أمرهم وباطنه. وإنما قال هذا لأنهم قد طعنوا ـ مع استرذالهم ـ في إيمانهم، وأنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة، وإنما آمنوا هوى وبديهة، كما حكى الله عنهم في قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ ويجوز أن يتغابى لهم نوح عليه السلام. فيفسر قولهم الأرذلين، بما هو الرذالة عنده، من سوء الأعمال وفساد العقائد، ولا يلتفت إلى ما هو الرذالة عندهم، ثم يبني جوابه على ذلك فيقول: ما عليّ إلا اعتبار الظواهر، دون التفتيش عن أسرارهم والشق عن قلوبهم، وإن كان لهم عمل سيء، فالله محاسبهم ومجازيهم عليه، وما أنا إلا منذر لا محاسب ولا مجاز ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ ذلك، ولكنكم تجهلون فتنساقون مع الجهل حيث سيركم، وقصد بذلك ردّ اعتقادهم وإنكار أن يسمى المؤمن رذلاً، وإن كان أفقر الناس وأوضعهم نسباً، فإن الغنى غنى الدين، والنسب نسب التقوى ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ يريد ليس من شأني أن أتبع شهواتكم وأطيب نفوسكم بطرد المؤمنين الذين صح إيمانهم طمعاً في إيمانكم وما عليّ إلا أن أنذركم إنذاراً بيناً بالبرهان الصحيح الذي يتميز به الحق من الباطل / ٢/ ٦٠أ، ثم أنتم أعلم بشأنكم.

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

ليس هذا بإخبار بالتكذيب، لعلمه أن عالم الغيب والشهادة أعلم، ولكنه أراد أني لا أدعوك عليهم لما غاظوني وآذوني، وإنما أدعوك لأجلك ولأجل دينك، ولأنهم كذبوني في وحيك ورسالتك، فاحكم ﴿بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ﴾ والفتاحة: الحكومة. والفتاح: الحاكم؛ لأنه يفتح المستغلق كما سمي فيصلاً، لأنه يفصل بين الخصومات. الفلك: السفينة. وجمعه فلك: قال الله تعالى: ﴿وترى الفلك فيه مواخر﴾؛ فالواحد بوزن قفل، والجمع بوزن أسد، كسروا فعلاً على فعل، كما كسروا فعلاً على فعل، لأنهما أخوان في قولك: العرب والعرب، والرشد والرشد. فقالوا أسد وأسد، وفلك وفلك. ونظيره: بعير هجان، وإبل هجان. ودرع دلاص، ودروع دلاص، فالواحد بوزن كناز، والجمع بوزن كرام. والمشحون: المملوء. يقال: شحنها عليهم خيلاً ورجالاً.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾

قرئ: بكل ريع، بالكسر والفتح: وهو المكان المرتفع، قال المسيب بن عَلَس [من الكامل]:

فِي الآلِ يَرْفَعُهَا وَيَخْفِضُهَا رِيعٌ يَلُوحُ كَأَنَّهُ سَحْلُ[1]

ومنه قولهم: كم ريع أرضك؟ وهو ارتفاعها. والآية: العلم وكانوا ممن يهتدون بالنجوم في أسفارهم. فاتخذوا في طرقهم أعلاماً طوالاً فبعثوا بذلك، لأنهم كانوا مستغنين عنها بالنجوم. وعن مجاهد: بنوا بكل ريع بروج الحمام[2]. والمصانع: مآخذ الماء. وقيل: القصور المشيدة والحصون ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ترجون الخلود في الدنيا، أو تشبه حالكم حال من يخلد. وفي حرف أبيّ: كأنكم. وقرئ تخلدون بضم التاء مخففاً ومشدداً ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ بسوط أو سيف كان ذلك ظلماً وعلواً، وقيل: الجبار الذي يقتل ويضرب على الغضب. وعن الحسن: تبادرون تعجيل العذاب، لا تتثبتون متفكرين في العواقب.

﴿وَٱتَّقُوا ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ

---

(١) للمسيب بن علس. والآل: هو السراب. وقيل: الآل: ما في طرفي النهار وما في وسطه السراب. والريع بالكسر: الطريق والمرتفع من الأرض. والسحل: نوع أبيض من ثياب اليمن، ولعل الضمير للظعائن.، أي: هي في الآل، أو في وقته: برفعها تارة وبخفضها أخرى، ريع: أي طريق مرتفع تارة، ومنخفض أخرى. أو مكان عال ترتفع بصعوده وتنخفض بالهبوط منه، يلوح: أي يظهر من بعد، كأنه ثياب بيض.
ينظر: ديوانه (ص ٦٢٥)، لسان العرب (ريع)، (سحل)، تاج العروس (ريع)، (سحل).

(٢) قال محمود: «كانوا يهتدون في أسفارهم بالنجوم، فاتخذوا في طرقهم أعلاماً فعبثوا بذلك، إذ النجوم فيها غنية عنها. وقيل: المراد القصور المشيدة، وقيل: بروج الحمام» قال أحمد: وتأويلها على القصور أظهر، وقد ورد ذم ذلك على لسان نبينا ﷺ، حيث وصف الكائنين آخر الزمان بأنهم يتطاولون في البنيان، وما أحسن قول مالك رضي الله عنه: ولا يصلي الإمام على شيء أرفع مما عليه أصحابه، كالدكاك تكون مرتفعة في المحراب ارتفاعاً كبيرا، لأنهم يعبثون، فعبر عن ترفعهم إلى المحراب على سبيل التكبر ومطاولتهم المأمومين بالعبث، كتعبير هود صلوات الله عليه وسلامه عن ترفع قومه في البنيان بالعبث. وأما تأويل الآية على اتخاذهم الأعلام في الطرقات وقد كانت لهم بالنجوم كفاية، ففيه بعد، من حيث أن الحاجة تدعو إلى ذلك لغيم مطبق وما يجري مجراه. ولو وضع هذا في زماننا اليوم لهذا المقصد لم يكن عبثا. والله أعلم.

عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾

بالغ في تنبيههم على نعم الله، حيث أجملها ثم فصلها مستشهداً بعلمهم، وذلك أنه أيقظهم عن سنة غفلتهم عنها حين قال[1] ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ ثم عدّدها عليهم وعرّفهم المنعم بتعديد ما يعلمون من نعمته، وأنه كما قدر أن يتفضل عليكم بهذه النعمة، فهو قادر على الثواب والعقاب، فاتقوه. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]. فإن قلت: كيف قرن البنين بالأنعام؟ قلت: هم الذين يعينونهم على حفظها والقيام عليها.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾

فإن قلت: لو قيل ﴿أَوَعَظْتَ﴾ أو لم تعظ، كان أخصر. والمعنى واحد. قلت: ليس المعنى بواحد وبينهما فرق، لأنّ المراد: سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ، أم لم تكن أصلاً من أهله ومباشريه، فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه، من قولك: أم لم تعظ. من قرأ: خلق الأوّلين بالفتح، فمعناه: أنّ ما جئت به اختلاق الأوّلين وتخرّصهم، كما قالوا: أساطير الأوّلين. أو ما خلقنا هذا إلا خلق القرون الخالية، نحيا كما حيوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا حساب. ومن قرأ: خلق، بضمتين، وبواحدة، فمعناه، ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين وعادتهم، كانوا يدينونه ويعتقدونه، ونحن بهم مقتدون. أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت الإعادة لم يزل عليها الناس في قديم الدهر أو ما هذا الذي جئت به من الكذب إلا عادة الأولين، كانوا يلفقون مثله ويسطرونه.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

---

(١) قوله «حين قال» لعله: حيث قال. (ع)

﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ يجوز أن يكون إنكاراً لأن يتركوا مخلدين في نعيمهم لا يزالون عنه، وأن يكون تذكيراً بالنعمة في تخلية الله إياهم وما يتنعمون فيه من الجنات وغير ذلك، مع الأمن والدّعة ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ في الذي استقر في هذا المكان من النعيم، ثم فسره بقوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾﴾ وهذا أيضاً إجمال ثم تفصيل. فإن قلت: لم قال / ٢/ ٦٠ب ﴿وَنَخْلٍ﴾ بعد قوله: في جنات، والجنة تتناول النخل أوّل شيء كما يتناول النعم الإبل كذلك من بين الأزواج، حتى أنهم ليذكرون الجنة ولا يقصدون إلا النخيل؛ كما يذكرون النعم ولا يريدون إلا الإبل؛ قال زهير [من البسيط]:

. . . . . تَسْقِي جَنَّةً سَحَقَا[1]

قلت: فيه وجهان: أن يخص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر؛ تنبيهاً على انفراده عنها بفضله عليها، وأن يريد بالجنات: غيرها من الشجر؛ لأنّ اللفظ يصلح لذلك، ثم يعطف عليها النخل. الطلعة: هي التي تطلع من النخلة. كنصل السيف في جوفه شماريخ القنو. والقنو: اسم للخارج من الجذع كما هو بعرجونه وشماريخه. والهضيم: اللطيف الضامر، من قولهم: كشح هضيم، وطلع إناث النخل فيه لطف، وفي طلع الفحاحيل جفاء، وكذلك طلع البرني ألطف من طلع اللون[2]، فذكرهم نعمة الله في أن وهب لهم أجود النخل وأنفعه: لأنّ الإناث ولادة التمر، والبرني: أجود التمر وأطيبه ويجوز أن يريد أن نخيلهم أصابت جودة المنابت وسعة الماء. وسلمت من العاهات، فحملت الحمل الكثير، وإذا كثر الحمل هضم، وإذا قل جاء فاخرا. وقيل: الهضيم: اللين النضيج، كأنه قال: ونخل قد أرطب ثمره. قرأ الحسن: وتنحتون، بفتح الحاء. وقرئ: فرهين، وفارهين. والفراهة: الكيس والنشاط. ومنه: خيل فرهة، استعير لامتثال الأمر، وارتسامه طاعة الآمر المطاع. أو جعل الأمر مطاعاً على المجاز الحكمي، والمراد الآمر. ومنه قولهم: لك عليّ إمرة مطاعة. وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى﴾. فإن قلت: ما فائدة قوله ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾؟ قلت: فائدته أنّ فسادهم فساد مصمت ليس معه شيء من الصلاح، كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾

---

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول عند تفسير آية ٢٥ من سورة البقرة فراجعه إن شئت اهـ.

(٢) قوله «وكذلك طلع البرني ألطف من طلع اللون» البرني: ضرب من التمر. واللون: الدقل، والدقل: أردأ التمر. كذا في الصحاح. (ع)

المسحر: الذي سحر كثيراً حتى غلب على عقله. وقيل: هو من السحر الرئة[1]، وأنه بشر.

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾

الشرب: النصيب من الماء، نحو السقي والقيت، للحظ من السقي والقوت. وقرئ بالضم. روي أنهم قالوا: نريد ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة، فتلد سقبا[2]. فقعد صالح يتفكر، فقال له جبريل عليه السلام: صل ركعتين وسل ربك الناقة، ففعل، فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم ونتجت سقبا مثلها في العظم. وعن أبي موسى: رأيت مصدرها فإذا هو ستون ذراعاً. وعن قتادة: إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله، ولهم شرب يوم لا تشرب فيه الماء ﴿بِسُوٓءٍ﴾ بضرب أو عقر أو غير ذلك. عظم اليوم لحلول العذاب فيه ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب، لأن الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد.

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

وروي أن مسطعاً ألجأها إلى مضيق في شعب، فرماها بسهم فأصاب رجلها فسقطت: ثم ضربها قدار. وروي أنّ عاقرها قال: لا أعقرها حتى ترضوا أجميعن، فكانوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون: أترضين؟ فتقول: نعم، وكذلك صبيانهم. فإن قلت: لم أخذهم العذاب وقد ندموا؟ قلت: لم يكن ندمهم ندم تائبين. ولكن ندم خائفين أن يعاقبوا على العقر عقاباً عاجلاً، كمن يرى في بعض الأمور رأياً فاسداً ويبني عليه، ثم يندم ويتحسر كندامة الكسعيّ[3] أو ندموا ندم تائبين ولكن في غير وقت التوبة، وذلك عند معاينة العذاب. وقال الله تعالى ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [النساء: ١٨]

---

(١) قوله «الرئة» لعله: بمعنى الرئة. (ع)

(٢) قوله «فتلد سقبا» في الصحاح «السقب»: الذكر من ولد الناقة. (ع)

(٣) قوله «كندامة الكسعي» الكسع: حي من اليمن. والكسعي: رجل منهم ربى تبعة حتى أخذ منها قوساً فرمى عنها الوحش ليلا وظن أنه أخطأ، فكسر القوس، فلما أصبح رأى ما أصابه من الصيد فندم. وضرب به المثل من قال [من الوافر]:

ندمت ندامة الكسعي لما ... رأت عيناه ما صنعت يداه

كذا في الصحاح. (ع)

الآية. وقيل: كانت ندامتهم على ترك الولد، وهو بعيد. واللام في العذاب: إشارة إلى عذاب يوم عظيم.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

أراد بالعالمين: الناس. أي: أتأتون من بين أولاد آدم عليه السلام ـ على فرط كثرتهم وتفاوت أجناسهم وغلبة إناثهم على ذكورهم في الكثرة ذكرانهم كأن الإناث قد أعوزتكم. أو أتأتون أنتم ـ من بين من عداكم من العالمين ـ الذكران، يعني أنكم يا قوم لوط وحدكم مختصون بهذه الفاحشة. والعالمون على هذا القول: كل ما ينكح من الحيوان ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ يصلح أن يكون تبييناً لما خلق[1]، وأن يكون للتبعيض، ويراد بما خلق: العضو المباح منهنّ. وفي قراءة ابن مسعود: ماأصلح لكم ربكم من أزواجكم، وكأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم. العادي: المتعدّي في ظلمه، المتجاوز فيه الحدّ، ومعناه: أترتكبون هذه المعصية على / ٢/ ٦١أ عظمها، بل أنتم قوم عادون في جميع المعاصي، فهذا من جملة ذاك، أو بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا بالعدوان، حيث ارتكبتم مثل هذه العظيمة.

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن نهينا وتقبيح أمرنا ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ من جملة من أخرجناه من بين أظهرنا

---

(١) قال محمود: «يحتمل أن يكون من أزواجكم بياناً لما خلق، وأن يكون للتبعيض ويراد به العضو المباح منهن. وفي قراءة ابن مسعود: ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم، فكأنهم كانوا يفعلون ذلك بنسائهم، قال أحمد: وقد أشار الزمخشري بهذه الإشارة للاستدلال بهذه الآية على خظر إتيان المرأة في غير المأتى، وبيانه أن «من» لو كانت بياناً لكان المعنى حينئذٍ على ذمهم بترك الأزواج، ولا شك أن ترك الأزواج مضموم إلى إتيان الذكران، وحينئذ يكون المنكر عليهم الجمع بين ترك الأزواج وإتيان الذكران، لا أن ترك الأزواج وحده منكر، ولو كان الأمر كذلك لكان النصب في الثاني متوجها على الجمع، وكان إما الأفصح أو المتعين، وقد اجتمعت العامة على القراءة به مرفوعاً، ولا يتفقون على ترك الأفصح إلى ما لا مدخل له في الفصاحة أو في الجواز أصلاً، فلما وضح ذلك تبين أن هذا المعنى غير مراد، فيتعين حمل «من» على البعضية، فيكون المنكر عليهم أمرين كل واحد منهما مستقل بالإنكار، أحدهما: إتيان الذكران. والثاني: مجانبة إتيان النساء في المأتى رغبة في إتيانهن في غيره، وحينئذٍ يتوجه الرفع لفوات الجمع اللازم على الوجه الأول، واستقلال كل واحد من هاتين العظيمتين بالنكير، والله الموفق.

وطردناه من بلدنا، ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال: من تعنيف به. واحتباس لأملاكه[1]. وكما يكون حال الظلمة إذا أجلوا بعض من يغضبون عليه، وكما كان يفعل أهل مكة بمن يريد المهاجرة.

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾

و﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ أبلغ من أن يقول: إني لعملكم قال، كما تقول فلان من العلماء، فيكون أبلغ من قولك: فلان عالم؛ لأنك تشهد له بكونه معدوداً في زمرتهم، ومعروفة مساهمته لهم في العلم. ويجوز أن يريد: من الكاملين في قلاكم. والقلى: البغض الشديد، كأنه بغض يقلي الفؤاد والكبد. وفي هذا دليل على عظم المعصية، والمراد: القلي من حيث الدين والتقوى، وقد تقوى همة الدِّين في دين الله حتى تقرب كراهته للمعاصي من الكراهة الجبلية ﴿مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من عقوبة عملهم وهو الظاهر. ويحتمل أن يريد بالتنجية: العصمة. فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا﴾؟ قلت: معناه أنه عصمه وأهله من ذلك إلا العجوز، فإنها كانت غير معصومة منه، لكونها راضية به ومعينة عليه ومحرشة، والراضي بالمعصية في حكم العاصي. فإن قلت: كان أهله مؤمنين ولولا ذلك لما طلب لهم النجاة، فكيف استثنيت الكافرة منهم؟ قلت: الاستثناء إنما وقع من الأهل وفي هذا الاسم لها معهم شركة بحق الزواج وإن لم تشاركهم

---

(١) قال محمود: «أي من جملة من أخرجناه، ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال من تعنيف به واحتباس لأملاكه وأشباه ذلك، قال أحمد: وكثيرا ما ورد في القرآن خصوصاً في هذه الصورة العدول عن التعبير بالفعل إلى التعبير بالصفة المشتقة، ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع، كقول فرعون ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ وقولهم ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ وقولهم ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ وقوله: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ وقوله تعالى في غيرها) ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ وكذلك ﴿ذرنا نكن مع القاعدين﴾ وأمثاله كثيرة، والسر في ذلك والله أعلم: أن التعبير بالفعل إنما يفهم وقوعه خاصة، وأما التعبير بالصفة ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع، فإنه يفهم أمراً زائداً على وقوعه، وهو أن الصفة المذكورة كالسمة لموصوف ثابتة العلوق به. كأنها لقب، وكأنه من طائفة صارت كالنوع المخصوص المشهور ببعض السمات الرديئة. واعتبر ذلك لو قلت: رضوا بأن يتخلفوا، لما كان في ذلك مزيد على الأخبار بوقوع التخلف منهم لا غير. وانظر إلى المساق وهو قوله ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ كيف ألحقهم لقباً رديئاً، وصيرهم من نوع رذل مشهور بسمة التخلف، حتى صارت له لقباً لاصقا به، وهذا الجواب عام في جميع ما يرد عليك من أمثال ذلك، فتأمله واقدره قدره، والله الموفق للصواب.

في الإيمان. فإن قلت: ﴿فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ صفة لها، كأنه قيل: إلا عجوزاً غابرة، ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم[1] قلت: معناه إلا عجوزاً مقدرا غبورها. ومعنى الغابرين في العذاب والهلاك: غير الناجين. قيل: إنها هلكت مع من خرج من القرية بما أمطر عليهم من الحجارة. والمراد بتدميرهم: الائتفاك بهم، وأمّا الإمطار: فعن قتادة: أمطر الله على شذاذ القوم حجارة من السماء فأهلكهم. وعن ابن زيد: لم يرض بالائتفاك حتى أتبعه مطرا من حجارة. وفاعل ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ ولم يرد بالمنذرين قوماً بأعيانهم، أنما هو للجنس، والمخصوص بالذمّ محذوف، وهو مطرهم.

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾

قرئ أصحاب الأيكة بالهمزة وبتخفيفها، وبالجرّ على الإضافة وهو الوجه. ومن قرأ بالنصب وزعم أن ليكة بوزن ليلة: اسم بلد، فتوهم قاد إليه خط المصحف، حيث وجدت مكتوبة في هذه السورة وفي سورة ص بغير ألف. وفي المصحف أشياء كتبت على خلاف قياس الخط المصطلح عليه، وإنما كتبت في هاتين السورتين على حكم لفظ اللافظ، كما يكتب أصحاب النحو لان، ولولى: على هذه الصورة لبيان لفظ المخفف، وقد كتبت في سائر القرآن على الأصل، والقصة واحدة، على أن ليكة اسم لا يعرف. وروي أن أصحاب الأيكة كانوا أصحاب شجر ملتف، وكان شجرهم الدوم. فإن قلت: هلا قيل: أخوهم شعيب، كما في سائر المواضع؟ قلت: قالوا: إن شعيباً لم يكن من أصحاب الأيكة. وفي الحديث: إن شعيباً أخا مدين، أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة.

﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾

الكيل على ثلاثة أضرب: واف، وطفيف، وزائد، فأمر بالواجب الذي هو الإيفاء، ونهى عن المحرّم الذي هو التطفيف، ولم يذكر الزائد، وكأن تركه عن الأمر والنهي: دليل على أنه إن فعله فقد أحسن وإن لم يفعله فلا عليه. قرئ: بالقسطاس مضموماً ومكسورا

---

(١) قال محمود: «المجرور صفة لها، كأنه قيل: إلا عجوزاً غابرة ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم. قلت: معناه: إلا عجوزاً مقدرا غبورها، أي: في الهلاك والعذاب» قال أحمد: وإن تعجلت برفع القاعدة الممهدة آنفاً، فاعلم أن السر الذي اقتضى العدول عن أن يقول مثلاً: إلا عجوزاً غابرة إلى ما ذكر في المتلوّ: هو أن المذكور في التلاوة يقتضي الاسجال عليها بأنها من أمة موسومين بهذه السمة من الهلاك كما قدمته الآن، فهو أبلغ من مجرد وصفها بالغبور. والله أعلم.

وهو الميزان وقيل: القرسطون، فإن كان من القسط وهو العدل ـ وجعلت العين مكررة ـ فوزنه فعلاس، وإلا فهو رباعي. وقيل: وهو بالرومية العدل. يقال: بخسته حقه، إذا نقصته إياه. ومنه قيل للمكس: البخس، وهو عامّ في كل حق ثبت لأحد أن لا يهضم، وفي كل ملك أن لا يغضب عليه مالكه ولا يتحيف منه، ولا يتصرف فيه إلا بإذنه تصرفاً شرعياً. يقال: عثا في الأرض وعثى وعاث، وذلك نحو قطع الطريق، والغارة، وإهلاك الزروع، وكانوا يفعلون ذلك مع توليهم أنواع الفساد فنهوا عن ذلك. وقرئ: الجبلة، بوزن الأبلة. والجبلة[1]، بوزن الخلقة. ومعناهنّ واحد، أي: ذوي الجبلة، وهو كقولك: والخلق الأوّلين.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾

فإن قلت: هل اختلف المعنى /٢/٦١ب بإدخال الواو ههنا وتركها في قصة ثمود؟ قلت: إذا أدخلت الواو فقد قصد معنيان: كلاهما مناف للرسالة عندهم: التسحير والبشرية، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحراً ولا يجوز أن يكون بشراً، وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحراً، ثم قرر بكونه بشراً مثلهم. فإن قلت: إن المخففة من الثقيلة ولامها كيف تفرقنا على فعل الظنّ وثاني مفعوليه؟ قلت: أصلهما أن يتفرقا على المبتدأ والخبر، كقولك: إن زيد لمنطلق، فلما كان البابان ـ أعني باب كان وباب ظننت ـ من جنس باب المبتدأ والخبر، فعل ذلك في البابين فقيل: إن كان زيد لمنطلقاً، وإن ظننته لمنطلقاً.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾

قرئ: كسفاً بالسكون والحركة وكلاهما جمع كسفة، نحو: قطع وسدر. وقيل: الكسف والكسفة، كالريع والريعة، وهي القطعة وكسفة: قطعة والسماء: السحاب، أو المظلة. وما كان طلبهم في ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب. ولو كان فيهم أدنى ميل إلى التصديق لما أخطروه ببالهم فضلاً أن يطلبوه. والمعنى: إن كنت صادقاً أنك نبيّ. فادع الله أن يسقط علينا كسفاً من السماء.

﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

---

(١) قوله «الأبلة والجبلة» في الصحاح «الأبلة» بالضم وتشديد اللام: الغدرة من التمر. وفيه «الغدرة»: القطعة من اللحم إذا كانت مجتمعة. وفيه أيضاً: الجبلة الخلقة. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقرأها الحسن بالضم اهـ. (ع)

﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ يريد: أنّ الله أعلم بأعمالكم وبما تستوجبون عليها من العقاب، فإن أراد أن يعاقبكم بإسقاط كسف من السماء فعل، وإن أراد عقاباً آخر فإليه الحكم والمشيئة.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ۝١٨٩ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٩١﴾

﴿فَأَخَذَهُمۡ﴾ الله بنحو ما اقترحوا من عذاب الظلة إن أرادوا بالسماء السحاب، وإن أرادوا المظلة فقد خالف بهم عن مقترحهم. يروى أنه حبس عنهم الريح سبعاً، وسلط عليهم الومد[1] فأخذ بأنفاسهم لا ينفعهم ظلّ ولا ماء ولا سرب، فاضطرّوا إلى أن خرجوا إلى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها برداً ونسيماً، فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا. وروي أنّ شعيباً بعث إلى أمّتين: أصحاب مدين، وأصحاب الأيكة، فأهلكت مدين بصيحة جبريل، وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة. فإن قلت: كيف كرّر في هذه السورة في أوّل كل قصة وآخرها ما كرّر؟ قلت: كل قصة منها كتنزيل برأسه، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها، فكانت كل واحدة منها تدلي بحق في أن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها، وأن تختتم بما اختتمت به، ولأنّ في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس، وتثبيتاً لها في الصدور. ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها، وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب وأرسخ في الفهم وأثبت للذكر وأبعد من النسيان، ولأنّ هذه القصص طرقت بها آذان وقر عن الإنصات للحق، وقلوب غلف عن تدبره، فكوثرت بالوعظ والتذكير، وروجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذناً، أو يفتق ذهناً، أو يصقل عقلاً طال عهده بالصقل، أو يجلو فهماً قد غطى عليه تراكم الصدأ.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ۝١٩٥ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٩٦﴾

﴿وَإِنَّهُ﴾ وإن هذا التنزيل، يعني: ما نزل من هذه القصص والآيات. والمراد بالتنزيل: المنزل. والباء في ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ﴾ ونزل به الروح، على القراءتين للتعدية. ومعنى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ﴾ جعل الله الروح نازلاً ﴿به على قلبك﴾ أي: حفظكه وفهمك إياه. وأثبته في قلبك إثبات ما لا ينسى، كقوله تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ [الأعلى: ٦] ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ﴾ إما أن يتعلق بالمنذرين، فيكون المعنى: لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان وهم خمسة: هود،

---

(١) قوله «الومد» شدة حر الليل، كما في الصحاح. (ع)

وصالح، وشعيب، وإسماعيل، ومحمد عليهم الصلاة والسلام. وإما أن يتعلق بنزل، فيكون المعنى: نزل باللسان العربي[1] لتنذر به؛ لأنه لو نزله باللسان الأعجمي، لتجافوا عنه أصلاً، ولقالوا: ما نصنع بما لا نفهمه فيتعذر الإنذار به وفي هذا الوجه: أن تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك، لأنك تفهمه ويفهمه قومك. ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك، لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها، وقد يكون الرجل عارفاً بعدّة لغات، فإذا كلم بلغته التي لقنها أولاً ونشأ عليها وتطبع بها، لم يكن قلبه إلا إلى معاني الكلام يتلقاها بقلبه ولا يكاد يفطن للألفاظ كيف جرت وإن كلم بغير تلك اللغة وإن كان ماهراً بمعرفتها كان نظره أولاً في ألفاظها ثم في معانيها، فهذا تقرير أنه نزل على قلبه لنزوله بلسان عربي مبين ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإن القرآن ـ يعني ذكره مثبت في سائر الكتب السماوية. وقيل: إن معانيه فيها. وبه يحتج لأبي حنيفة في جواز القراءة بالفارسية في الصلاة على أن القرآن قرآن إذا ترجم بغير العربية حيث قيل ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ لكون معانيه فيها / ٢/ ٦٢أ. وقيل: الضمير لرسول الله ـ ﷺ ـ وكذلك في ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ وليس بواضح.

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾

وقرئ: يكن، بالتذكير. وآية، بالنصب على أنها خبره، و﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ هو الاسم. وقرئ. تكن، بالتأنيث، وجعلت ﴿ءَايَةً﴾ اسما، و﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ خبراً، وليست كالأولى لوقوع النكرة اسماً والمعرفة خبراً، وقد خرّج لها وجه آخر ليتخلص من ذلك، فقيل: في (تكن) ضمير القصة، و﴿ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ جملة واقعة موقع الخبر. ويجوز على هذا أن يكون (لهم آية) هي جملة الشأن، و﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ بدلاً عن آية. ويجوز مع نصب الآية تأنيث (تكن) كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾، ومنه بيت لبيد [من الكامل]:

فَمَضَىٰ وَقَدَّمَهَا وَكَانَتْ عَادَةً ... مِنْهُ إِذَا هِيَ عَرَّدَتْ أَقْدَامُهَا[2]

---

(١) عاد كلامه. قال: واعلم أن الآيات الأول كالمقدمات لهذه الآيات، فإن الله تعالى أبان أنه منزل بلغتهم التي لا يعرفون غيرها، وعلى لسان عربي لو أشكل عليهم فهم شيء منه لكان البيان عنده عتيداً ناجزاً، وما نزله على لسان أعجمي قد يعتذرون بأنه لا يفهمهم ما استغلق على أفهامهم من معانيه، فقد أزاح أعذارهم ودحض حججهم، وسلكه في قلوبهم ومكنهم من فهمه أشد التمكين، ولكن لم يوفقهم بل قدر عليهم أنهم لا يؤمنون» قال أحمد: يعني بقوله قدر عليهم أنهم لا يؤمنون علم أنهم لا يؤمنون، لأن التقدير عنده العلم. والحق أن الله تعالى أراد منهم أنهم لا يؤمنون. وهذا تقرير لجواب عن سؤال مقدر، وهو أن يقال: قلوبهم نائية عن قبول الحق، لا يلجها بوجه ولا بسبب، فكيف يسلك الحق فيها؟ فيجاب عنه بهذا الجواب، والله أعلم.

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة ١٣ فراجعه إن شئت اهـ. مصححه.

وقرئ: تعلمه بالتاء. و﴿عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: عبد الله بن سلام وغيره. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [القصص: ٥٣]. فإن قلت: كيف خط في المصحف (علمواء) بواو قبل الألف؟ قلت: خط على لغة من يميل الألف إلى الواو وعلى هذه اللغة كتبت الصلوة والزكوة والربوا.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾

الأعجم: الذي لا يفصح في لسانه عجمة واستعجام. والأعجمي مثله. إلا أن فيه لزيادة ياء النسبة زيادة تأكيد. وقرأ الحسن: الأعجميين. ولما كان من يتكلم بلسان غير لسانهم لا يفقهون كلامه، قالوا له: أعجم وأعجمي، شبهوه بمن لا يفصح ولا يبين، وقالوا لكل ذي صوت من البهائم والطيور وغيرها: أعجم، قال حُمَيْدٌ [من الطويل]:

. . . . . وَلاَ عَرَبِيًّا شَاقَهُ صَوْتُ أَعْجَمَا[1]

﴿سَلَكْنَٰهُ﴾ أدخلناه ومكناه. والمعنى: إنا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربي بلسان عربي مبين، فسمعوا به وفهموه وعرفوا فصاحته وأنه معجزة لا يعارض بكلام مثله، وانضم إلى ذلك اتفاق علماء أهل الكتب المنزلة قبله على أن البشارة بإنزاله وتحلية المنزل عليه

---

(١) وما هاج هذا الشوق إلا حمامة ... دعت ساق حر ترحة وتندما
فغنت على غصن غشاء فلم تدع ... لنائحة في نوحها متندما
عجبت لها أنى يكون غناؤها ... فصيحا ولم تفغر بمنطقها فما
ولم أر مثلي شاقه صوت مثلها ... ولا عربياً شاقه صوت أعجما

لحميد بن ثور، وقد رحلت صاحبته سلمى، يقول: وما حرك هذا الشوق وبعثه فتوقد بقلبي، إلا حمامة دعت ذكرها وساق حر: مركب إضافي. وهو ذكر القمري، أو ذكر الحمام مطلقاً. والحر ـ بالضم ـ: فرخ الحمامة، والترحة: الحزن، ضد الفرحة. والتندم: التأسف على ما فات. ويروى «ترنما» وهو تحسين الصوت. وهما نصب على الحالية، أي: حزينة ومتأسفة. أو ذات ترحة وذات تندم. وعشا: نصب على الظرف. فلم تدع: أي تترك لنائحة في غنائها، متندماً: أي تندما أو شيئاً يتندم به أو فيه. ويجوز أن ضمير نوحها للنائحة، وأنى بمعنى: كيف أو من أنى. والاستفهام تعجبي. والفصيح: البين الخالي عن اللكنة والتعقيد. وفغر فاه يفغره، من باب نفع: فتحه، أي والحال أنها لم تفتح فمها بنطقها، وإنما يخرج صوتها من صدرها. وشاقه: تسبب له في الشوق، والعربي: المفصح. والأعجم: الذي لا يفصح من الحيوان، نقلته العرب لمن لا يفهمون كلامه ولا يفقهون مراده، وربماألحقوه ياء النسب للمبالغة في شدة العجمة وبينه وبين عربي طباق التضاد.

وصفته في كتبهم، وقد تضمنت معانيه وقصصه، وصحّ بذلك أنها من عند الله وليست بأساطير كما زعموا، فلم يؤمنوا به وجحدوه، وسموه شعراً تارة، وسحراً أخرى، وقالوا: هو من تلفيق محمد وافترائه ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ﴾ الأعاجم الذي لا يحسن العربية، فضلاً أن يقدر على نظم مثله ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِمْ﴾ هكذا فصيحاً معجزاً متحدّى به، لكفروا به كما كفروا، ولتمحلوا لجحودهم عذراً، ولسموه سحراً، ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ أي مثل هذا السلك سلكناه في قلوبهم، وهكذا مكناه وقرّرناه فيها، وعلى مثل هذه الحال وهذه الصفة من الكفر به والتكذيب له وضعناه فيها، فكيفما فعل بهم وصنع وعلى أي وجه دبر أمرهم، فلا سبيل أن يتغيروا عما هم عليه من جحوده وإنكاره، كما قال ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام: ٧]. فإن قلت: كيف أسند السلك بصفة التكذيب إلى ذاته؟ قلت: أراد به الدلالة على تمكنه مكذباً في قلوبهم أشدّ التمكن، وأثبته فجعله بمنزلة أمر قد جبلوا عليه وفطروا. ألا ترى إلى قولهم: هو مجبول على الشح، يريدون: تمكن الشحّ فيه؛ لأنّ الأمور الخلقية أثبت من العارضة، والدليل عليه أنه أسند ترك الإيمان به إليهم على عقبه[1]، وهو قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾. فإن قلت: ما موقع ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ من قوله: ﴿سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؟ قلت: موقعه منه موقع الموضع والملخص؛ لأنه مسوق لثباته مكذباً مجحوداً في قلوبهم، فأتبع ما يقرّر هذا المعنى من أنهم لا يزالون على التكذيب به وجحوده حتى يعاينوا الوعيد. ويجوز أن يكون حالاً، أي: سلكناه فيها غير مؤمن به. وقرأ الحسن: فتأتيهم، بالتاء يعني: الساعة. وبغتة. بالتحريك. وفي حرف أبيّ: ويروه بغتة. فإن قلت: ما معنى التعقيب في قوله: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً . . . فَيَقُولُوا۟﴾؟ قلت: ليس المعنى ترادف رؤية العذاب ومفاجأته وسؤال النظرة فيه في الوجود، وإنما المعنى ترتبها في الشدّة، كأنه قيل: لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم للعذاب فما هو أشدّ منها وهو لحوقه بهم مفاجأة، فما هو أشدّ منه وهو سؤالهم النظرة. ومثال ذلك أن تقول لمن تعظه: إن أسات مقتك الصالحون فمقتك الله، فإنك لا تقصد بهذا الترتيب أنّ مقت الله يوجد عقيب مقت الصالحين، وإنما قصدك إلى ترتيب شدّة الأمر على المسيء، وأنه يحصل له بسبب الإساءة مقت الصالحين، فما هو أشدّ من مقتهم: وهو مقت الله، وترى ثمّ يقع في هذا الأسلوب فيحل موقعه / ٢/ ٦٢ب

---

(١) قال محمود: «إن قلت: كيف أسند السلك بصيغة التكذيب إلى ذاته؟ قلت: المراد الدلالة على تمكنه مكذباً في قلبهم أشد التمكن، فجعله بمنزلة أمر قد جبلوا عليه، بدليل أنه أسند إليهم ترك الإيمان به على عقبه في قوله: لا يؤمنون به» قال أحمد: وما ينقم من بقائه على ظاهره إلا أنه التوحيد المحض والإيمان الصرف، وأن الله تعالى خلق قلوبهم نائية عن قبول الحق. والقدرية لا يبلغون في التوحيد إلى هذا الحد، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ تبكيت لهم بإنكار وتهكم، ومعناه: كيف يستعجل العذاب من هو معرض لعذاب يسأل فيه من جنس ما هو فيه اليوم من النظرة والإمهال طرفة عين فلا يجاب إليها. ويحتمل أن يكون هذا حكاية توبيخ يوبخون به عند استنظارهم يومئذٍ، و﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾ على هذا الوجه حكاية حال ماضية. ووجه آخر متصل بما بعده، وذلك أنّ استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه غير كائن ولا لاحق بهم، وأنهم ممتعون بأعمار طوال في سلامة وأمن، فقال تعالى: أفبعذابنا يستعجلون أشراً وبطرا واستهزاء واتكالا على الأمل الطويل، ثم قال: هب أنّ الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم، فإذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ما ينفعهم حينئذٍ ما مضى من طول أعمارهم وطيب معايشهم. وعن ميمون بن مهران: أنه لقي الحسن في الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال له: عظني، فلم يزده على تلاوة هذه الآية، فقال ميمون: لقد وعظت فأبلغت. وقرئ: يمتعون، بالتخفيف.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾

﴿مُنذِرُونَ﴾ رسل ينذرونهم ﴿ذِكْرَىٰ﴾ منصوبة بمعنى تذكرة، إمّا لأن «أنذر، وذكر» متقاربان، فكأنه قيل: مذكرون تذكرة. وإمّا لأنها حال من الضمير في منذرون أي، ينذرونهم ذوي تذكرة. وإمّا لأنها مفعول له؛ على معنى: أنهم ينذرون لأجل الموعظة والتذكرة. أو مرفوعة على أنها خبر مبتدأ محذوف، بمعنى: هذه ذكرى. والجملة اعتراضية، أو صفة بمعنى: منذرون ذوو ذكرى. أو جعلوا ذكرى لإمعانهم في التذكرة وإطنابهم فيها. ووجه آخر: وهو أن يكون ذكرى متعلقة بأهلكنا مفعولاً له. والمعنى: وما أهلكنا من أهل قرية ظالمين إلا بعدما ألزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم، ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم، فلا يعصوا مثل عصيانهم ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فنهلك قوماً غير ظالمين. وهذا الوجه عليه المعوّل. فإن قلت: كيف عزلت الواو عن الجملة بعد «إلا» ولم تعزل عنها في قوله ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾﴾ [الحجر: ٤]؟ قلت: الأصل: عزل الواو لأن الجملة صفة لقرية، وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف كما في قوله: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾

كانوا يقولون: إنّ محمداً كاهن وما يتنزل عليه من جنس ما يتنزل به الشياطين على الكهنة، فكذبوا بأنّ ذلك مما لا يتسهل للشياطين ولا يقدرون عليه؛ لأنهم مرجومون بالشهب معزولون عن استماع كلام أهل السماء. وقرأ الحسن: الشياطون. ووجهه أنه رأى

آخره كآخر يبرين وفلسطين، فتخير بين أن يجري الإعراب على النون، وبين أن يجريه على ما قبله، فيقول: الشياطين والشياطون، كما تخيرت العرب بين أن يقولوا. هذه يبرون ويبرين، وفلسطون وفلسطين. وحقه أن تشتقه من الشيطوطة وهي الهلاك كما قيل له الباطل. وعن الفرّاء: غلط الشيخ في قراءته «الشياطون» ظنّ أنها النون التي على هجاءين، فقال النضر بن شميل: إن جاز أن يحتج بقول العجاج ورؤبة، فهلا جاز أن يحتجّ بقول الحسن وصاحبه ـ يريد: محمد بن السميفع ـ مع أنا نعلم أنهما لم يقرآ به إلا وقد سمعا فيه.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾

قد علم أنّ ذلك لا يكون، ولكنه أراد أن يحرّك منه لازدياد الإخلاص والتقوى. وفيه لطف لسائر المكلفين، كما قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾ [الحاقة: ٤٤]، فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك، فيه وجهان: أحدهما أن يؤمر بإنذار الأقرب فالأقرب من قومه، ويبدأ في ذلك بمن هو أولى بالبداءة، ثم بمن يليه. وأن يقدّم إنذارهم على إنذار غيرهم، كما روي عنه عليه السلام: أنه لما دخل مكة قال: «كل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين، وأوّل ما أضعه ربا العباس (١٠٧٩) والثاني: أن يؤمر بأن لا يأخذه القريب للقريب من العطف والرأفة، ولا يحابيهم في الإنذار والتخويف. وروي أنه صعد الصفا ـ لما نزلت ـ فنادى الأقرب فالأقرب فخذاً فخذاً، وقال: «يا بني عبد المطلب، يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، يا عباس عمّ النبيّ، يا صفية عمة رسول الله، إني لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم (١٠٨٠). وروي أنه جمع بني عبد المطلب وهم

١٠٧٩ ـ هو جزء من حديث صفة حجة النبي ـ ﷺ ـ كما رواه جابر.
وقد تقدم بتمامه.
وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: وعزاه الطيبي للترمذي من رواية عمرو بن الأحوص وليس هو عنده بتمامه.
قال الحافظ: أخرجه مسلم من حديث جابر الطويل في صفة الحج، وعزاه الطيبي للترمذي من رواية عمرو بن الأحوص، وليس هو عنده بتمامه. انتهى.

١٠٨٠ ـ ورد هذا في عدة أحاديث منها ما أخرجه البخاري (٥/ ٤٤٩) كتاب الوصايا: باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب حديث (٢٧٥٣)، ومسلم (١/ ٦٢٣ ـ الأبي) كتاب الإيمان: باب في قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ حديث (٣٥١/ ٢٠٦)، والنسائي (٦/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ٢٨٠) من طريق شعيب، ويونس عن الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة به.
وللحديث طريق آخر عن أبي هريرة: أخرجه مسلم (١/ ٦٢٢ ـ الأبي) كتاب الإيمان باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ حديث (٣٤٨/ ٢٠٤)، والترمذي (٥/) كتاب التفسير، =

يومئذٍ أربعون رجلاً: الرجل منهم يأكل الجذعة، ويشرب العس[1] على رجل شاة وقعب من لبن، فأكلوا وشربوا حتى صدروا، ثم أنذرهم فقال: «يا بني عبد المطلب، لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدّقي؟ قالوا: نعم. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» (١٠٨١)، وروي أنه قال: «يا بني عبد المطلب، يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، افتدوا أنفسكم من النار فإني لا أغني عنكم شيئاً» ثم قال: «يا عائشة بنت أبي بكر،

= باب ومن سورة الشعراء حديث (٣١٨٥)، وأحمد (٢/ ٣٣٣ ـ ٣٦٠ ـ ٣٦١ ـ ٥١٩)، والنسائي (٦/ ٢٤٨) كتاب الوصايا: باب إذا أوصى لعشيرته الأقربين؛ كلهم من طريق عبد الملك بن عمير عن موسى بن طلحة عن أبي هريرة به. وللحديث شاهد من حديث عائشة. أخرجه مسلم (١/ ٦٢٣ ـ الأبي) كتاب الإيمان باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ حديث (٣٥٠/ ٢٠٥)، والترمذي (٥/) كتاب التفسير: باب ومن سورة الشعراء، حديث (٣١٨٤)، والنسائي (٦/ ٢٥٠) كتاب الوصايا: باب إذا أوصى لعشيرته الأقربين، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ١١٨)، وابن منده في «الإيمان» (٩٤٥ ـ ٩٤٦ ـ ٩٤٧)، وابن حبان (٦٥٤٨)؛ كلهم من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة به.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وروى بعضهم عن هشام بن عروة عن أبيه عن النبي ـ ﷺ ـ مرسلاً لم يذكر فيه عائشة.

قال الحافظ: أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة قال: قام رسول الله ـ ﷺ ـ حين نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، فقال: يا بني عبد مناف يا بني هاشم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، وروى مسلم من حديث عائشة لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، قام رسول الله ـ ﷺ ـ على الصفا فقال: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب: لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم»، وروى ابن مردويه من حديث أبي أمامة قال لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، خرج رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «يا بني هاشم اشتروا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، يا عائشة بنت أبي بكر، ويا حفصة بنت عمر، ويا أم سلمة ويا فاطمة بنت محمد، ويا أم الزبير عمة رسول الله ـ ﷺ ـ: اشتروا أنفسكم من النار؛ فإني لا أملك لكم من الله شيئاً». انتهى.

١٠٨١ ـ يقرب منه حديث ابن عباس في هذا الباب أخرجه البخاري (٨/ ٦٠٩) كتاب التفسير باب في تفسير سورة «تبت يدا أبي لهب وتب» حديث (٤٩٧١) ومسلم (١/ ٦٢٤ ـ الأبي) كتاب الإيمان: باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ حديث (٣٥٥/ ٢٠٨) والترمذي (٥/) كتاب التفسير: باب ومن سورة تبت حديث (٣٣٦٣) والنسائي في «التفسير» (٤٤٦).

والطبري (١٩/ ١٢١) وابن منده في «الإيمان» (٩٤٩ ـ ٩٥٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ١٨١ ـ ١٨٢)، وابن حبان (٦٥٥٠)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٤٠٠ ـ ٤٠١)، وأحمد (١/ ٢٨١) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

وللحديث طرق أخرى عند ابن مردويه، والبيهقي، وأبي نعيم معاً في الدلائل يراجع لها «تخريج الكشاف» للإمام الزيلعي (٢/ ٤٧٧ ـ ٤٧٨).

---

(١) قوله «ويشرب العس» هو القدح العظيم، كما في الصحاح. (ع)

ويا حفصة بنت عمر، ويا فاطمة بنت محمد، ويا صفية عمة محمد، اشترين أنفسكنّ من النار فإني لا أغني عنكنّ شيئاً» (١٠٨٢).

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه، وإذا أراد / ٢/ ٦٣أ أن ينهض للطيران رفع جناحه، فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلاً في التواضع ولين الجانب؛ ومنه قول بعضهم [من المتقارب]:

وَأَنْتَ الشَّهِيرُ بِخَفْضِ الْجَنَاحِ فَلاَ تَكُ فِي رَفْعِهِ أَجْدَلاَ[1]

ينهاه عن التكبر بعد التواضع. فإن قلت: المتبعون للرسول هم المؤمنون، والمؤمنون هم المتبعون للرسول، فما قوله: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؟ قلت: فيه وجهان: أن يسميهم قبل الدخول في الإيمان مؤمنين لمشارفتهم ذلك، وأن يريد بالمؤمنين المصدّقين بألسنتهم، وهم صنفان: صنف صدّق واتبع رسول الله فيما جاء به، وصنف ما وجد منه إلا التصديق فحسب، ثم إمّا أن يكونوا منافقين أو فاسقين، والمنافق والفاسق لا يخفض لهما الجناح. والمعنى: من المؤمنين من عشيرتك وغيرهم، يعني: أنذر قومك فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض لهم جناحك، وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم من الشرك بالله وغيره.

١٠٨٢ ـ ينظر الحديث قبل السابق.

قال الحافظ: أما أوله فأخرجه ابن إسحاق في المغازي، والبيهقي في الدلائل من طريقه من رواية ابن عباس مطولاً. وأخرجه البزار، وأبو نعيم في الدلائل من طريق عباد بن عبد الله الأسدي عن علي قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ قال لي رسول الله ـ ﷺ ـ: اصنع لي رجل شاة على صاع من طعام، وأعد قعباً من لبن. ففعلت. ثم قال لي: اجمع لي بني عبد المطلب فجمعتهم وهم يومئذٍ أربعون رجلاً ـ فوضعت الطعام بينهم، فأكلوا حتى شبعوا، وإن فيهم لمن يأكل الجذعة ويشرب العس، ثم جئت بالعس فشربوا حتى رووا، وأما بقيته فمتفق عليه من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، خرج رسول الله ـ ﷺ ـ حتى صعد الصفا، فنادى: يا صباحاه، فاجتمعوا إليه، فقال) يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب. أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم تصدقونني؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تباً لك؟ ألهذا جمعتنا فنزلت هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾. انتهى.

---

(١) شبه بطائر يرق لأفراخه ويخفض إليها جناحه رحمة لها؛ فاستعار خفض الجناح لذلك على سبيل التمثيل؛ ورشحه بقوله: «فلا تك في رفعه أجدلا» أي شبيهاً بالأجدل؛ وهو الصقر في القسوة والجفوة. أو في التكبر والترفع ويجوز أن خفض الجناح: كناية عما يلزمه من الرقة والرحمة واللين. ورفعه: كناية عن القسوة والجفوة؛ وبين الخفض والرفع طباق التضاد.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾

﴿وَتَوَكَّلْ﴾ على الله يكفك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم. والتوكل: تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره. وقالوا: المتوكل من إن دهمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية لله، فعلى هذا إذا وقع الإنسان في محنة ثم سأل غيره خلاصه، لم يخرج من حد التوكل؛ لأنه لم يحاول دفع ما نزل به عن نفسه بمعصية الله. وفي مصاحف أهل المدينة والشام: فتوكل، وبه قرأ نافع وابن عامر، وله محملان في العطف: أن يعطف على ﴿فَقُلْ﴾. أو ﴿فَلَا تَدْعُ﴾. ﴿عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ على الذي يقهر أعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته. ثم أتبع كونه رحيماً على رسوله ما هو من أسباب الرحمة: وهو ذكر ما كان يفعله في جوف الليل من قيامه للتهجد، وتقلبه في تصفح أحوال المتهجدين من أصحابه؛ ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون. ويستبطن سر أمرهم، وكيف يعبدون الله، وكيف يعملون لآخرتهم، كما يحكى أنه حين نسخ فرض قيام الليل، طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون لحرصه عليهم وعلى ما يوجد منهم من فعل الطاعات وتكثير الحسنات، فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع منها من دندنتهم بذكر الله والتلاوة. والمراد بالساجدين: المصلون. وقيل: معناه يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة. وتقلبه في الساجدين: تصرفه فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده إذا أمّهم. وعن مقاتل: أنه سأل أبا حنيفة رحمه الله، هل تجد الصلاة في الجماعة في القرآن؟ فقال: لا يحضرني، فتلا له هذه الآية. ويحتمل أنه: لا يخفى عليه حالك كلما قمت وتقلبت مع الساجدين في كفاية أمور الدين ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما تقوله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما تنويه وتعمله. وقيل: هو تقلب بصره فيمن يصلي خلفه، من قوله ﷺ: «أتموا الركوع والسجود، فوالله إني لأراكم من خلف ظهري إذا ركعتم وسجدتم» (١٠٨٣). وقرئ: ويقلبك.

١٠٨٣ ـ أخرجه البخاري (٢/ ٣٤٧) كتاب الأذان باب إلزاق المنكب بالمنكب حديث (٧٢٥) ومسلم (٢/ ٣١٧ ـ الأبي) كتاب الصلاة: باب الأمر بتحسين الصلاة وإتمامها والخشوع فيها حديث (١١٠/ ٤٢٥) وأحمد (٣/ ١٣٠ ـ ١٧٠ ـ ٢٧٩)، والنسائي (٢/ ١٩٣) كتاب الافتتاح: باب الأمر بإتمام الركوع، وأبو يعلى (٥/ ٣٤١) رقم (٢٩٧١) كلهم من طريق شعبة عن قتادة عن أنس به مرفوعاً.
وأخرجه البخاري (١١/ ٥٣٤) كتاب الأيمان والنذور: باب كيف كانت يمين رسول الله ـ ﷺ ـ حديث (٦٦٤٤) وأحمد (٣/ ٢٦٩) كلاهما من طريق همام عن قتادة عن أنس به وأخرجه مسلم (٢/ ٣١٧ ـ الأبي) كتاب الصلاة باب الأمر بتحسين الصلاة حديث (١١١/ ٤٢٥) وأحمد (٣/ ١٧٨) والطيالسي (١/ ٩٧ ـ منحة) رقم (٤٢٦) والبيهقي (٢/ ١١٧) كتاب الصلاة باب التغليظ على من لا يتم الركوع والسجود كلهم من طريق هشام عن قتادة عن أنس، وأخرجه مسلم (٢/ ٣١٧ ـ الأبي) =

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾

﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ هم الكهنة والمتنبئة، كشقّ، وسطيح، ومسيلمة، وطليحة ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ هم الشياطين، كانوا قبل أن يحجبوا بالرجم يسمعون إلى الملإ الأعلى فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب، ثم يوحون به إلى أوليائهم من أولئك ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ فيما يوحون به إليهم؛ لأنهم يسمعونهم ما لم يسمعوا. وقيل: يلقون إلى أوليائهم السمع أي المسموع من الملائكة. وقيل: الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين فيتلقون وحيهم إليهم. أو يقولون المسموع من الشياطين إلى الناس، وأكثر الأفاكين كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم، وترى أكثر ما يحكمون به باطلاً وزوراً. وفي الحديث: «الكلمة يتخطفها الجنيّ فيقرّها في أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة» (١٠٨٤). والقرّ: الصبّ. فإن قلت: كيف دخل حرف الجرّ على «من» المتضمنة لمعنى الاستفهام والاستفهام له صدر الكلام؟ ألا ترى إلى قولك: أعلى زيد مررت؟ ولا تقول: على أزيد مررت؟ قلت: ليس معنى التضمن أن الاسم دل على معنيين معاً: معنى الاسم، ومعنى الحرف. وإنما معناه: أن الأصل أمن، فحذف حرف الاستفهام واستمرّ الاستعمال على حذفه، كما حذف من «هل» والأصل: أَهَلْ؛ قال [من البسيط]:

. . . . . أَهَلْ رَأَوْنَا بِسَفْحِ الْقَاعِ ذِي الأَكَمِ؟[1]

= كتاب الصلاة: باب الأمر بتحسين الصلاة حديث (١١١/ ٤٢٥) وأحمد (٣/ ١٧٠ ـ ٢٣٤) من طريق سعيد عن قتادة عن أنس.

قال الحافظ: متفق عليه من حديث قتادة عن أنس بمعناه. واللفظ المذكور عند النسائي واتفقا عليه من حديث أبي هريرة بلفظ: «وهل ترون قبلتي ههنا: فوالله ما يخفى علي ركوعكم ولا سجودكم وإني لأراكم من وراء ظهري». انتهى.

١٠٨٤ ـ أخرجه البخاري (١١/ ٣٧٨) كتاب الطب باب الكهانة حديث (٥٧٦٢) وفي (١٢/ ٢٤٠) كتاب الأدب: باب قول الرجل للشيء ليس بشيء حديث (٦٢١٣) وفي (١٣/ ٥٤٥) كتاب التوحيد: باب قراءة الفاجر والمنافق حديث (٧٥٦١) ومسلم (٤/ ١٧٥٠) كتاب السلام باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان حديث (١٢٢/ ٢٢٢٨) وأحمد (٦/ ٨٧) وعبد الرزاق (٢٠٣٤٧) وابن حبان (٦١٣٦) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ١٣٨) والبغوي في «شرح السنة» (٦/ ٢٧٥ ـ بتحقيقنا) كلهم من طريق الزهري عن يحيى بن عروة عن عروة عن عائشة به.

قال الحافظ: متفق عليه من حديث عائشة أتم منه. انتهى.

---

(١) سائل فوارس يربوع بشدتنا أهل رأونا بسفح القاع ذي الأكم؟

لزيد الخيل الذي سماه النبي ﷺ زيد الخير، وسائل: فعل أمر بمعنى أسألهم وراجعهم في السؤال، =

فإذا أدخلت حرف الجرّ على «من» فقدّر الهمزة قبل حرف الجرّ في ضميرك، كأنك تقول: أعلى من تنزّل الشياطين، كقولك: أعلى زيد مررت. فإن قلت: ﴿يُلْقُونَ﴾ ما محله؟ قلت: يجوز أن يكون في محل النصب على الحال، أي: تنزل ملقين / ٢/ ٦٣ب السمع، وفي محل الجرّ صفة لكل أفاك؛ لأنه في معنى الجمع. وأن لا يكون له محل بأن يستأنف، كأن قائلاً قال: لم تنزل على الأفاكين؟ فقيل: يفعلون كيت وكيت. فإن قلت: كيف؟ قيل ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ بعد ما قضى عليهم أن كل واحد منهم أفاك؟ قلت: الأفاكون هم الذين يكثرون الإفك، ولا يدل ذلك على أنهم لا ينطقون إلا بالإفك، فأراد أن هؤلاء الأفاكين قلّ من يصدق منهم فيما يحكي عن الجني؛ وأكثرهم مفتر عليه. فإن قلت: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾، ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾، ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾ لم فرق بينهنّ وهنّ أخوات؟ قلت: أريد التفريق بينهنّ بآيات ليست في معناهنّ، ليرجع إلى المجيء بهنّ وتطرية ذكر ما فيهنّ كرّة بعد كرّة: فيدل بذلك على أن المعنى الذي نزلن فيه من المعاني التي اشتدت كراهة الله لخلافها. ومثاله: أن يحدّث الرجل بحديث وفي صدره اهتمام بشيء منه وفضل عناية، فتراه يعيد ذكره ولا ينفك عن الرجوع إليه.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾

= لتتلقن حقيقة الحال، ويربوع: أبو حي، والباء بمعنى عن، أي: سلهم عن قوتنا. ويروى: بشدتنا، بفتح الشين. يقال: شد على قرنه في الحرب: حمل عليه، أي سلهم عن صولتنا عليهم، وجعل البصريون الباء بعد السؤال للسببية، لا بمعنى عن، والأصل في الاستفهام الهمزة، ولذلك كان لها تمام التصدير في الكلام، وأصل «هل» بمعنى «قد»، «ومن» لمن يفعل، «وما» لما لا يفعل. «ومتى» للزمان، وهكذا بقية الأدوات موضوعة لمعان غير الاستفهام، فليست عريقة فيه، بل الهمزة مقدرة قبلها، ولذلك تظهر في بعض الأحيان كما في البيت، ويدخل عليها حروف الجر، ويضاف إليها غيرها: لكن لكثرة الاستعمال فيه صارت الهمزة نسياً منسيا في حيز الإهمال. والاستفهام هنا للتقرير، «وهل» بمعنى «قد»، وأنكر ذلك ابن هشام. ونقل عن السيرافي أن الرواية: أم هل، فأم بمعنى «بل» «وهل» للاستفهام: قال: وعلى صحة الأولى فهل مؤكدة للهمزة شذوذاً اهـ. ويروى: فهل رأونا. ويجوز أن معناه: سلهم فقد رأونا. والسفح: السطح أو أصل الجبل المنسطح. والقاع المستوى من الأرض. والأكم ـ بالفتح ـ: واحده أكمة؛ وجمعه أكم بالضم، وهي التلول المرتفعة.

ينظر: ديوانه ص ١٥٥، والجنى الداني ص ٣٤٤، والدرر ٥/ ١٤٦، وشرح شواهد المغني ٢/ ٧٧٢، وشرح المفصل ٨/ ١٥٢، وبلا نسبة في أسرار العربية ص ٣٥٨، والأشباه والنظائر ٢/ ٤٢٧، ٧/ ٥٥، وتذكرة النحاة ص ٧٨؛ وجواهر الأدب ص ٢٨١، وخزانة الأدب ١١/ ٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٦، والخصائص ٢/ ٤٦٣، ورصف المباني ص ٤٠٧، وشرح عمدة الحافظ ص ٣٨٥، واللمع ص ٣١٧، ومغني اللبيب ٢/ ٣٥٢، والمقتضب ١/ ٤٤، ٣/ ٢٩١، وهمع الهوامع ٢/ ٧٧، ١٣٣.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ مبتدأ. و﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ خبره: ومعناه: أنه لا يتبعهم على باطلهم وكذبهم وفضول قولهم وما هم عليه من الهجاء وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب، والنسيب بالحرم والغزل[1] والابتهار، ومدح من لا يستحق المدح، ولا يستحسن ذلك منهم ولا يطرب على قولهم ـ إلا الغاوون والسفهاء والشطار. وقيل: الغاوون: الراوون. وقيل: الشياطين، وقيل: هم شعراء قريش: عبد الله بن الزبعري، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، ومسافع بن عبد مناف، وأبو عزة الجمحيّ. ومن ثقيف: أمية بن أبي الصلت. قالوا: نحن نقول مثل قول محمد ـ وكانوا يهجونه، ويجتمع إليهم الأعراب من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم ـ وقرأ عيسى بن عمر: والشعراء، بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر. قال أبو عبيد: كان الغالب عليه حبّ النصب. قرأ: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾ [المسد: ٤]. ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ و﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾[2] وقرئ: يتبعهم، على التخفيف. ويتبعهم، بسكون العين تشبيها «لبعه بعضد».

ذكر الوادي والهيوم: فيه تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول واعتسافهم وقلة مبالاتهم بالغلوّ في المنطق ومجاوزة حدّ القصد فيه، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة، وأشحهم على حاتم، وأن يبهتوا البريّ[3]، ويفسقوا التقي. وعن الفرزدق: أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله [من الوافر]:

فَبِتْنَ بِجَانِبَيَّ مُصَرَّعَاتٍ ... وَبِتُّ أَفُضُّ أَغْلَاقَ الْخِتَامِ[4]

---

(١) قوله «والنسيب بالحرم والغزل» النسيب: أي التشبب، والغزل: محادثة النساء ومراودتهن. والابتهار: ادعاء الشيء كذبا، كذا في الصحاح في مواضع. (ع)

(٢) قوله «وسورة أنزلناها» لعل بعدها سقطاً تقديره: بالنصب. (ع)

(٣) قوله «وأن يبهتوا البري» أي يتهموا. (ع)

(٤) خرجن إلي لم يطمثن قبلي ... وهن أصح من بيض النعام
فبتن بجانبي مصرعات ... وبت أفض أغلاق الختام

للفرزدق: يقول: خرج النسوة إلي من خدورهن حال كونهن لم يطمثن، أي لم يزل بكارتهن أحد قبلي، وأكد ذلك بقوله: وهُنَّ أصح من بيض النعام الذي يصان عادة عن الكسر، لئلا تذهب زينته فبتن مطروحات عن يميني وشمالي، وبت أفض: أفتح وأزيل بكارتهن الشبيهة بأغلاق الختام لسدها الفروج، والأغلاق جمع غلق كسبب، بمعنى الأقفال. والختام: ما يسد به فم الزجاجة ونحوها، فإضافتها إليه بيانية. أو من إضافة المسميات إلى الاسم كأعواد السواك. ويجوز أن الختام بمعنى المختوم وهو الفرج، ويمكن أن يراد بالأغلاق: جوانب البكارة المشتبكة بالفرج وشبه البكارات أو جوانبها بالأغلاق على طريق التصريح، ولما سمع سليمان بن عبد الملك ذلك، قال: قد وجب عليك الحد، فقال: قد درأه الله عني بقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝٢٦﴾ فخلى سبيله.
ينظر ديوانه (ص ٨٣٦) (طبعة الصاوي)، لسان العرب (غلق)، (ختم)، أساس البلاغة (فضض)، تاج العروس (غلق).

فقال: قد وجب عليك الحدّ، فقال: يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني الحدّ بقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله وتلاوة القرآن، وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر، وإذا قالوا شعراً قالوه في توحيد الله والثناء عليه، والحكمة والموعظة، والزهد والآداب الحسنة، ومدح رسول الله ـ ﷺ ـ والصحابة وصلحاء الأمة، وما لا بأس به من المعاني التي لا يتلطخون فيها بذنب ولا يتلبسون بشائنة ولا منقصة، وكان هجاؤهم على سبيل الانتصار ممن يهجوهم. قال الله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ﴾ [النساء: ١٤٨]، وذلك من غير اعتداء ولا زيادة على ما هو واجب لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وعن عمرو بن عبيد: أن رجلاً من العلوية قال له: إن صدري ليجيش بالشعر، فقال: فما يمنعك منه فيما لا بأس به؟ والقول فيه: أن الشعر باب من الكلام، فحسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام. وقيل: المراد بالمستثنين: عبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت، والكعبان: كعب بن مالك، وكعب بن زهير؛ والذين كانوا ينافحون عن رسول الله ـ ﷺ ـ، ويكافحون هجاة قريش. وعن كعب بن مالك أنّ النبي ﷺ قال له: «اهجهم؛ فوالذي نفسي بيده لهو أشدّ عليهم من النبل» (١٠٨٥)، وكان يقول لحسان:

١٠٨٥ ـ قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢/ ٤٧٩) غريب.

وأخرج الترمذي (٥/ ١٣٩) كتاب الأدب: باب ما جاء في إنشاد الشعر حديث (٢٨٤٧) والنسائي (٥/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣) كتاب الحج: باب إنشاد الشعر في الحرم والمشي بين يدي الإمام حديث (٢٨٧٣) من طريق ثابت عن أنس أن النبي ـ ﷺ ـ دخل مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رواحة يمشي بين يديه وهو يقول [من الرجز]:

خلو بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله

ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

فقال له عمر: يا ابن رواحة بين يدي رسول الله ـ ﷺ ـ وفي حرم الله عز وجل تقول الشعر قال النبي ـ ﷺ ـ: خل عنه فلهو أسرع فيهم من نضح النبل.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه وقد روى عبد الرزاق هذا الحديث أيضاً عن معمر عن الزهري عن أنس نحو هذا. وروي في غير هذا الحديث أن النبي ـ ﷺ ـ دخل مكة في عمرة القضاء وكعب بن مالك بين يديه وهذا أصح عند بعض أهل الحديث لأن عبد الله بن رواحة قتل يوم مؤتة وإنما كانت عمرة القضاء بعد ذلك .اهـ. =

«قل وروح القدس معك» (١٠٨٦). ختم السورة بآية ناطقة بما لا شيء أهيب منه وأهول،

= وأخرجه ابن مردويه كما في «تخريج الكشاف» (٢/ ٤٨٠) من طريق عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال: لما نزلت ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ أتيت رسول الله ـ ﷺ ـ فقلت: يا رسول الله ماذا ترى في الشعر فقال: إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأنما تنضحوهم بالنبل.

قال الحافظ: أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال: لما نزلت ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ أتيت رسول الله ـ ﷺ ـ فقلت: يا رسول الله، ماذا ترى في الشعر؟ فقال: المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفس محمد بيده لكأنما تنضحونهم بالنبل، قلت: وأخرجه من هذا الوجه قال ابن سعد في الطبقات: أخبرنا عبد الوهاب أخبرنا ابن عوف عن ابن سيرين «أن النبي ـ ﷺ ـ قال لكعب بن مالك: هيه: فأنشده. فقال: «لهو أشد عليهم من وقع النبل» ولمسلم عن عائشة مرفوعاً «اهجوا قريشاً فهو أشد عليها من رشق النبل» وللترمذي والنسائي من حديث ثابت عن أنس في أثناء حديث: فقال النبي ـ ﷺ ـ: «حل عنهم يا عمر، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل».

١٠٨٦ ـ أخرجه النسائي في الكبرى (٨٠١٥) كتاب المناقب (٨٢٩٥) من طريق يحيى بن آدم عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ لحسان: «اهج المشركين؛ فإن روح القدس معك».

قلت: وهذا إسناد صحيح، وإن كان بعضهم تكلم في إسرائيل، واختلاط أبي إسحاق لكن رواية إسرائيل عن أبي إسحاق قبل الاختلاط، كما قرر ذلك عدد من أهل العلم.

فقال أبو حاتم الرازي: «إسرائيل ثقة متقن، من أتقن أصحاب أبي إسحاق».

وقال عبد الرحمن بن مهدي: «إسرائيل في أبي إسحاق أثبت من شعبة والثوري».

وقال أبو داود: قلت لأحمد بن حنبل: إسرائيل إذا انفرد بحديث يحتج به؟ قال: «إسرائيل ثبت الحديث...».

وقال حجاج الأعور: «قلنا لشعبة: حدثنا حديث أبي إسحاق قال: سلوا عنها إسرائيل، فإنه أثبت مني» / انظر سير أعلام النبلاء (٣٥٥١٧ ـ ٣٦١) وشرح علل الترمذي لابن رجب (٢/ ٥١٩ ـ ٥٢٥) وللحديث طريق آخر عند الحاكم (٣/ ٤٨٧) عن عيسى بن عبد الرحمن حدثني عدي بن ثابت عن البراء بن عازب ـ فذكر نحوه وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٢/ ٤٨١) لابن مردويه في تفسيره في سورة الأحزاب قلت: والحديث أصله في الصحيحين عن عدي بن ثابت عن البراء أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «اهج المشركين، فإن جبريل معك».

قلت: ووجدت متابعاً لإسرائيل عند الطبراني في الصغير (٨٣١٢) من طريق أيوب بن سويد عن السري بن يحيى عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب «أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لحسان بن ثابت: «اهج المشركين، فإن الله عز وجل يؤيدك بروح القدس» وقال: لم يروه عن السري إلا أيوب.

والذي يظهر لي أن فيه انقطاعاً بين السري بن يحيى وأبي إسحاق السبيعي والعلم عند الله تعالى.

قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: متفق عليه من حديث البزار. ولفظ النسائي: قال لحسان: «اهج المشركين، فإن روح القدس معك» وللحاكم وابن مردويه من طريق مجالد عن الشعبي عن جابر أن النبي ـ ﷺ ـ قال يوم الأحزاب «من يحمي أعراض المسلمين؟ فقال حسان: أنا. قال: فقم اهجهم، فإن روح القدس سيعينك». انتهى.

ولا أنكى لقلوب المتأمّلين ولا أصدع لأكباد المتدبرين. وذلك قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾ وما فيه من الوعيد البليغ، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ وإطلاقه. وقوله: ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ وإبهامه، وقد تلاها أبو بكر لعمر ـ رضي الله عنهما ـ حين عهد إليه (١٠٨٧). وكان السلف الصالح يتواعظون بها ويتناذرون شدّتها. وتفسير الظلم بالكفر تعليل[1]. ولأن تخاف فتبلغ الأمن: خير من أن تأمن فتبلغ الخوف. وقرأ ابن عباس: أي منفلت ينفلتون، ومعناها: إن الذين ظلموا يطمعون أن ينفلتوا من عذاب الله، وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات / ٢/ ٦٤أ وهو النجاة: اللهم اجعلنا ممن جعل هذه الآية بين عينيه فلم يغفل عنها؛ وعلم أن من عمل سيئة فهو من الذين ظلموا، والله أعلم بالصواب.

قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم وبعدد من كذب بعيسى وصدق بمحمد عليهم الصلاة والسلام» (١٠٨٨).

١٠٨٧ ـ أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ١٤٨) في ترجمة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ عن الواقدي بأسانيد متعددة مطولاً.
وعزاه الزيلعي وابن حجر في تخريج الكشاف لابن أبي حاتم في تفسير ه.
قال الحافظ ابن حجر في الكشاف: أخرجه ابن أبي حاتم من طريق محمد بن عبد الرحمن بن المحسر عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: «كتب أبي وصية فذكرها، وفي آخرها: وإن تجر وتظلم فإني لا أعلم الغيب. وسيعلم الذين ظلموا ـ الآية، ورواه ابن سعد في الطبقات في ترجمة أبي بكر عن الواقدي بأسانيد متعددة مطولاً. انتهى.
١٠٨٨ ـ تقدم برقم (٣٤٦)، وهو حديث فضائل القرآن سورة سورة وهو حديث موضوع.
قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف: رواه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب. انتهى.

---

(١) قوله «وتفسير الظلم بالكفر تعليل» لعله من عليله بالشيء، أي: لهاه به، كما يعلل الصبي بشيء من الطعام يجتزأ به عن اللبن، كما في الصحاح. (ع)